القسم الثانى

الأخلاق اليهودية ـ المسيحية

لا شك فى أنه يوجد فرق أساسى بين المذاهب الأخلاقية اليونانية والرومانية التى عُرفت فى « العهد الوثنى » وبين ما بناه رجال الفلسفة اليهودية – المسيحية.

ففلاسفة العهد الوثنى لروما ـ سواء منهم المتديِّن وغير المتديِّن ـ لا يتخذون عند تفكيرهم فى الدِّين مبدأ يقيمون ـ على أساسه ـ صروحهم الأخلاقية . لقد تحاشوا ذلك ، ولم يستندوا فى كل ما يبنونه من آراء ، إلا على العقل والتجربة ؛ لذلك كانت آراؤهم ناشئة عن العقل ، وعن العقل وحده ، ولا تتجه إلا إلى مخاطبة العقل.

أما رجال الفلسفة (**اليهودية – المسيحية**) ذوو الصبغة اليهودية المسيحية فهم يرتكزون على عنصر آخر : إنهم يرون أن عالمنا هذا كان موطن وحى سماوى وقد تجلَّى فيه الإله بذاته [1] وجاء وسط بنى الإنسان فعرَّفهم ببعض الحقائق.

---

(١) هذه العقيدة لفريق من المسيحيين ، وقد أبى كثيرون من قادة الفكر المسيحى أن يضحوا بعقولهم فى سبيل الإيمان بها فأعلنوا انشقاقهم على معتقديها ، أما الأولون المؤمنون بها فيعدّون المنشقين كفرة ملاحدة لإيثارهم جانب العقل على ما جاء به الدين

حصل هذا الوحى - حسبما يرى اليهود - فى مرة واحدة على طور سيناء حينما ألقى الله إلى موسى بالألواح.

أما المسيحيون فإنهم يرون أن الوحى حدث مرتين :

ـ فكان ما أُنزل على موسى شريعة مؤقتة.

ـ حتى إذا ما حلَّ الله فى شخص عيسى كمَّل هذه الشريعة ونشرها على الملأ كشريعة نهائية تامة.

وسواء نظرنا إلى الشريعة الموسوية،أم إلى الشريعة المسيحية، فإننا نجد مبدأ لا نزاع فيه ، هو أن الإنسان لا شأن له باكتشاف القواعد الأخلاقية ، وما عليه ـ إذا أراد معرفتها ـ إلا أن يتجه نحو النصوص المقدسة يقرؤها ويتدبُّرها.

وإذا نظرنا إلى تلك النصوص المقدَّسة فماذا ا نجد ؟

بماذا يأمر العهد القديم ؟..

وبماذا ينصح العهد الجديد ؟ [1] ..

أما الشريعة اليهودية فإنها منثورة فى ثلاثة أسفار أساسية من أسفار العهد القديم . تلك الأسفار هى :

١ـ سفر الخروج .

٢ـ سفر الأخبار.

٣ـ سفر التثنية .

---

(١) العهد القديم شريعة موسى عليه السلام، والعهد الجديد شريعة عيسى عليه السلام.

وهى تحتوى كثيراً من الأوامر والنواهى.

وبعض هذه الأوامر والنواهى يتحدث عن الطقوس الدينية ، ويبيِّن كيفية أدائها :

- كيف يجب بناء تابوت العهد ؟
- وكيف يجب أن تُصنع المسرحية ذات السبعة فروع ؟
- وكيف يجب أن يلبس الحَبْر ؟
- وكيف تُحرق القرابين ؟.. إلى كثير من هذا النوع.

وبعضها يختص بالطهارة الخاصة والعامة ، كالأوامر الشرعية الخاصة بالطهارة والنجاسة ، وكيفية معاملة الأبرص، والنهى عن أكل لحوم بعض الحيوانات.

ثم النواهى التى كان التحديد والخطأ فيها مثار دهشة كثير من المفسِّرين ومبعث فرح لكثير من النقاد[1] :

---

(١) سر ذلك أن النقاد كثيراً ما يعدّون العثور على مواطن الضعف نصراً علمياً له قيمته ، والنقاد الذين يحكّمون العقل لابد أن يفرحوا بظواهر التناقض العقلى فى تشريع يبدو للعقل غير متسق : إن الجمل والأرنب عند العقل لايخرجان عن غيرهما من أنواع الحيوان . أما علة التحريم وهى عدم شق الظلف فى الجمل والأرنب مع أنهما مجترّان فإنها علة تبدو لعقل الناقد غير مقنعة . ولايمكن أن تصدر عن تشريع صحيح النسبة إلى السماء. لأنها لا تعدو أمراً خلقياً فى شكل الأعضاء وما أكثر اختلاف أشكالها. فلو أن العلة مثلاً كانت قذارة لحم الحيوان أو ضرراً ينتج منه ، أو قبحاً تنقزز منه النفس لكان التعليل عقلياً مستقيماً. أما نظير ذلك فى الشريعة الإسلامية فعلى أتم انسجام ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾[سورة الأنعام:١٤٥].

«من كل أنواع الحيوانات التى تسير على أربع لا تأكلوا إلا ماكان مجترًّا وكان ظلفه مشقوقاً . أما ما كان مجترًّا غير ذى ظلف مشقوق كالجمل وغيره فلا تأكلوه بل اعتبروه نجساً» . والأرنب يجترُّ ، ولكنه ذو ظلف غير مشقوق فهو نجس . وكذلك الأمر فى الأرنب الجبلى.

وأخيراً ، كثير منها خاص بالأخلاق ، يتقدمها فى ذلك النص الشهير الذى يشتمل على الوصايا العشر فضلاً عن كثير من الأوامر الدينية .. وهو نص لا ترجع أهميته فقط إلى قوة أسلوبه وروعة أدائه ، وإنما إلى ما فيه من المعانى :

« تَحَدَّثَ الرَّبُّ ـ بعد ذلك ـ بما يأتى :

أنا الرَّبُّ إلهكم الذى أخرجكم من أرض مصر ـ موطن الذلَّة ـ فلا تتخذوا ما دونى آلهة تعبدونها.

حرَّمتُ عليكم الأصنام والتماثيل ، وتصوير ما فى السماء أو فى الأرض أو فى قاع البحر . لا تعبدوا شيئاً منها ولا تقيموا الشعائر لها لأنى الرب إلهكم ، الإله القوى الغيور ؛ الذى يثأر من الآباء العصاة ، ويأخذ بجريرتهم (١) أبناءهم ، وأحفادهم ، إلى الجيل الثالث والرابع ؛ حيث إنهم

---

(١) هنا سر أهمية هذا النص فى نظر الناقد العقلى لأن أخذ الولد بجريرة أبيه ضرب من التشريعات البدائية. أما أخذ الجيل الثالث والرابع بتلك الجريرة فهو عند النقاد لايسوغه عقل. أما التشريع الإسلامى هنا فظاهر الانسجام والاستقامة مع المنطق: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [سورة فاطر:١٨]. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)﴾ [سورة يوسف:٧٩]. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ=

أبغضوه بالمعصية . يمنح الغفران لمن أحبوه وحافظوا على فروضه ويسببهم يمنح هذا الغفران لأبنائهم وأحفادهم إلى ألف جيل من ذريتهم. لا تتخذوا اسم الرب إلهكم هزواً بينكم لأن الرب لا يعتبر من يتخذ اسمه هزواً من البرآء.

لا تنسوا أن تقدِّسوا يوم السبت . اشتغلوا طيلة ستة أيام واعملوا فيها ما تريدون عمله. أما اليوم السابع فإنه يوم راحة تخصِّصونه للرب إلهكم. لا تقوموا بعمل فى هذا اليوم . وكذلك أبناؤكم وخدمكم وخادماتكم وحيوانكم العامل ، بل والغريب الذى يكون فى بلدتكم . إذ إنَّى الرب الذى خلق السماء والأرض والبحر وما فيهن فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع . لذلك قد بارك الله يوم السبت وقدَّسه.

احترموا آباءكم وأمهاتكم لتعمَّروا طويلاً على الأرض التى منحها لكم الله.

لا تَقتلوا قَطُّ ، ولا تَزْنُوا قَطُّ ، ولا تَسرقوا قَطُّ ، ولا تشهدوا الزور - قَطُّ - على جاركم ، ولا ترغبوا فى زوجته أو خادمه أو خادمته أو ثوره أو حماره ، أو أى شىء يمتلكه ».

ثم النص الآتى الذى يحوى قانون القصاص الرهيب :

= امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [سورة عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. كذلك منح الغفران لألف جيل من أبناء الصالح مراعاة لخاطره يبدو للنقاد العقليين أكثر من سابقه غرابة وأوفر تناقضاً.

« **مَنْ قتلَ فعقابه القتل .**

ومَنْ قتلَ حيواناً فإنه يُلْزَم بحيوان مثله .

ومَنْ أهَانَ أحد مواطنيه يُهان بمثل إهانته ؛ العين بالعين ، والسِّن بالسِّن، والجروح قصاص ».

ثم النصوص التى يصل كثير منها إلى حد من العظمة والإنسانية له روعته . وهى الخاصة بالرقيق ، والاختلاس ، والمُغوين ، والأرامل ، واليتامى ، واحترام الشيوخ ، وواجبات القضاة .

إذا نظر الإنسان إلى هذه النصوص فإن ما يدهشه إنما هو طابع الأمر الصارم..

لِمَ يخضع الإنسان لكل هذه الفروض الدينية ، وهذه الفروض التى تتصل بالطهارة ، وتلك التى تتصل بالأخلاق ؟

لا تعطى الأسفار ـ التى ذكرناها سابقاً ـ إلا سبباً واحداً لذلك : هو إتيانها من (**يهوه**) إله اليهود « **الذى أخرجهم من الذلّة والاستعباد**» ، وهو يريد أن يُطاع. فَمَنْ أطاعه كُوفئ ومَنْ عصاه عُوقب.

« **أنا الرَّبُّ إلهكم** » تلك هى الجملة التى تتردد عند كل أمر أو نهى فى العهد القديم . وهذا هو السبب الذى يبرر كل شىء:

« **خاطبَ الرَّبُّ موسى قائلاً : خَاطِبْ بنى إسرائيل ، وقُلْ لهم كونوا قِدِّيسين . لأنّى أنا الرب إلهكم ، قُدُّوس . ليحترمْ كلٌّ منكم أباه وأمه ولا**

يُخفهما. حافظوا على أيام سبتى. أنا الرَّبُّ إلهكم. لا تولُّوا وجوهكم شطر الأصنام ، ولا تصنعوا آلهة تتخذونها من معادن تصهرونها . أنا الرَّبُّ إلهكم. لا تتحدثوا عن الأصمِّ بما يكره . ولا تضعوا أمام الأعمى ما يرتطم به . بل خافوا الرَّبَّ إلهكم لأنى أنا الرَّبُّ ».

والرَّبُّ يريد أن يُطاع. وليتحقق له ذلك يَعِدُ ويتوعَّد.

فأما الوعد :

« أنا الرَّبُّ إلهكم . إذا سرتم حسب أوامرى ، إذا حافظتم على ما أطلب منكم ، وعملتم به ، فإنى أُنزل عليكم المطر المناسب لكل فصل ؛ فتُنبت الأرضُ الحَبَّ ، وتُثمر الأشجار فى خصوبة يانعة ، وتكادون تذرون ما حصدتم فى سنبله لأن نضوج العنب يشغلكم فى قَطْفه.

ولا تكادون تفرغون من العمل فيه حتى يكون زمن زرع الأرض من جديد قد حان .

وتأكلون وتتمتعون بالشِّبع والرِّىِّ.

وتَقْطُنُونَ آمنينَ فى أوطانكم ، ويَسُودُ السَّلامُ ـ رحمةٌ منِّى بكم. قُطْرَكُمْ.

بل أسير أنا نفسى بينكم. وأكون إلهكم وتكونون شعبى ».

وأما الوعيد:

« فإذا لم تطيعونى ولم تقوموا بكل ما آمركم به ؛ فهاكم موقفى منكم:

أعاقبكم بالجَدْب وبالقيظ الذى تذبل منه أعينكم والذى يُنهككم.

سيكون من العبث أن تلقوا البذر فى الأرض لأن أعداءكم ستلتهمه .

وسأوجِّه إليكم نظرتى الغاضبة.

ستضرعون أمام أعدائكم وستكونون رعيةً لمن يبغضكم.

سأُلقى فى قلوبكم الرعب فتهربون حتى حين لا يتبعكم أحد.

فإذا لـم تطيعـونى ـ بعد كل هذا ـ فـإنى أعاقـبكم عقـاباً يزيد على سبعة أمثال ما تقدَّم ؛ وذلك بما عصيتم.

سأسحق كبرياءكم . وسأجـعل السماء من فوقكم كالنار ، والأرض من تحتكم كالنحاس.

كل ما تقومـون به من عمل سيكون عديم الجـدوى فلا تُنبت الأرضُ الحَبَّ ولا تُثمر الأشجار» .

ثم يستمـر النص ويتتابع الوعيـد : الحيوانات الوحشـية ، والطاعون ، والمجاعة ، والنفى ، ومختلف الكوارث ، وكل ما يُرهب ويُخيف .

أردنا أن نذكر نصوص العهد القديم ـ بدون تغـيير فيها ولا تبديل ـ لنرى ـ فى وضوح ـ أن الإله يأمـر كقائد حـربى وكملك يجب أن يُطاع لأنه الإله .

والطريقة الوحـيدة لاكتساب عطـفه ، ولاجتناب غضبـه ؛ ليست إلا الخضوع له .

والعهد القديم يشمل الشريعة . وليست الفضيلة إلا فهمها وتطبيقها فى كل حالة تعرض ، والتزامها بانتظام وخضوع .

وإذا ما نظرنا الآن إلى الإنجيل فإننا نجد فرقاً كبيراً . حقاً إنه لا يمكن أن يفصل المسيحىُّ « الإنجيل » عن « العهد القديم » ، فخير الأدلة على ألوهية المسيح توجد فى الظاهرتين الآتيتين:

١ـ تنبؤات ذُكرت فى العهد القديم .

٢ـ وتحقَّقت بوجود المسيح.

فإذا لم نعترف للعهد القديم بأنه مُوحًى به فإن طبيعة المسيح الإلهية تكون موطناً للشك.

ومع ذلك فإن تعاليم المسيح تخالف تعاليم موسى .

يقول عيسى فى إنجيل القديس (متَّى :

« لا تعتقدوا أنى أتيتُ لأمحو الشريعة والأنبياء ».

من المحتمل أنه لا يمحو ، ولكن من المؤكد أنه يغيِّر .. وإذا ما نظر الإنسان فى « الأخلاق الإنجيلية » فإنه يرى - لأول وهلة - فكرة تسودها هى أن المهم للإنسان إنما هو سعادته ، ولكن « **السعادة ليست فى هذا العالم** » ، فليست الأرض إلا منفى .. أما «مملكة الله» فليست فى عالمنا الأرضى ؛ بل هى فى عالم آخر .

الاهتمام بهذا العـالم الآخر - إذن - هو الذى يجب أن يوجِّه سلوكنا وأعمالنا:

« لا تجمعوا النفائس حيث السوس والصدأ يُتلفان كل شىء ، وحيث اللصوص ينقبون ويسرقون » .

« لكن اجمعوا واكنزوا النفائس فى السـماء حيث السوس والصدأ لا يتلفها ، وحيث اللصوص لا ينقبون ولا يسرقون ».

● ماذا يجب ـ إذن ـ ؟

يجيب عيسى : اغـرسوا الفضائل التى تحتقرها كـبرياء الإنسان ؛ مثل بساطة القلب ، والتواضع ، والطهارة :

« سعداءٌ هم السُّذَّج لأن مملكة السماء لهم . سعداءٌ هم المَرْضَى لأنهم سَيُواسَون . سـعداءٌ هم الحكماء لأنهم سيرثون المُلك . سـعداءٌ مَنْ جاعوا وظَمِئُوا إلى العـدل لأنهم سَيُشْبَعُون . سـعداءٌ هم الرُّحَمَـاء لأنهم سيُرحمـون . سعداءٌ هـم أطهار القلوب لأنهم سَيَرَوْنَ الله . سـعداءٌ مَنْ عُذِّبوا فى سبيل العدل لأن مملكة السماء لهم ».

وإذا كانت شريعة موسى تعزو إلى الطقوس ـ فى مظهرها الخارجى ـ بعض القيم ، فإن الإنجيل يرى أن لا قيمة لها على الإطلاق إلا إذا صدرت عن روح طاهرة :

«إذا حملتَ قـربانك إلى الهيكل ثم تذكَّـرتَ أن فى نفس أخيك منكَ

شيئاً فاتركْ قربانك أمام الهيكل وعُدْ لتصلح ما بينك وبين أخيك أولاً ، وبعد ذلك عُدْ إلى الهيكل وقَدِّم القربان».

وإذا كانت شريعة موسى تمدح « القصاص بالمثل » فإنه فى الإنجيل غير مستساغ :

« سمعتم أنه قيل : العين بالعين ، والسِّن بالسِّن ، ولكنى أقول : لا تقابلوا من يسيئونكم بالمِثْل ، بل إذا ضربكَ أحدٌ على خَدِّكَ الأيمن فأدِرْ له خَدَّكَ الأيسر . وإذا ادَّعى أحدٌ ملكية ثوبك فاتركْهُ له » .

وإذا كانت الشريعة الموسوية تحث على « حب الأصدقاء » و « بغض الأعداء » فإن الإنجيل يقول :

« ولكنى أقول لكم : أحِبُّوا أعداءكم ، وباركوا من يلعنكم ، واعملوا الخير لمن يُبغضكم ، وصَلُّوا لمن يُسيئكم ويُعذِّبكم ».

وهكذا نرى «الأخلاق اليهودية» يسود فيها فكرة « **العدل الثأرى**»[1].

أما أخلاق «الإنجيل» فتسود فيها فكرة « **الحب والإحسان والعفو**» ؛ فحب الآخرين ، وعدم مقابلة الشر بمثله ، والتمسك بطهارة القلب .. تلك هى الروح السائدة فى الإنجيل.. إن طهارة القلب هى العماد .

---

(١) أى أن يثأر للمعتدى عليه من المعتدى ، فيوقع به ما أوقعه هو به دون زيادة ـ على قدر الإمكان ـ صيانة للعدل . وهذا أيضاً هو روح التشريع الإسلامى مع الدعوة إلى حسن الاقتضاء وإيثار العفو اختياراً وطواعية بلا إجبار ولا إلحاح . ونصوص الكتاب والسنة فى ذلك لا تخفى على من يلتمسها.

انتقال التعاليم
(اليهودية ـ المسيحية) إلى الغرب

دخلت المذاهب الدينية والأخلاقية الناشئة عن أصل (**يهودى ـ مسيحى**) إلى العالم (**اليونانى ـ اللاتينى**) عن طريقٍ جدٍّ متواضع.

فقد حملها وأذاعها وعمل بها أولاً طائفة من عوام الشرقيين الذين كانوا يقطنون - منذ نشأة الإمبراطورية الرومانية - فى أطراف المدن المهمة بها ، ولم يكن للخاصة نصيب فى هذه الأمور.

وقد كان بالإمبراطورية أديان أخرى ، كدين (**ميثرا**) ، الذى لا يزال يدهشنا ما خلَّفه من آثار على شكل نُصُب.

ـ لِمَ سادت الاعتقادات « **اليهودية ـ المسيحية** » ؟ ..

ولِمَ اندثرت الاعتقادات الأخرى ؟

لا يزال الجواب عن هذا السؤال ـ رغم كثرة البحث والاستنتاج ـ من الصعوبة بمكان .. ذلك أن أسباب تلك الظاهرة معقدة كل التعقيد[1].

---

(١) يمكن أن يعلل لهذا بأن التدين الشعبى الوثنى لليونان واللاتين كان على صورة تجافى العقل مجافاة تامة ولاينسجم إلا مع عقليات بدائية. ولقد كانت عقائد تلك الديانات الشعبية فى أكثرها أساطير محضة. وإذا كانت قد حازت مكانها من عقليات أمم سلفت وعصور أفلت شموسها خلال عدة قرون قبل الميلاد وبعض قرون بعده فإنها بدون شك ما كانت تستطيع أن تساير التطور العقلى الطبيعى للإنسانية؛ ولذا لايكون ثمة موضع للدهشة إذا كانت تعاليم المسيحية قد قهرتها بعد تضحيات جمةٍ من مبشِّرى المسيحية وبعد إصرار منهم على بث عقائدهم رغم ما كان ينزل بهم من عنت وعذاب.وكم =

غير أنه من المؤكد أن الاعتقادات (**اليهودية ـ المسيحية**) أخذت فى الانتشار باستمرار وتسربت شيئاً فشيئاً إلى أثرياء المواطنين الذين لم يعودوا يعتقدون فى آلهة أسلافهم ، ولم يعودوا يؤمنون بقدرة القرابين .

وكان ـ من غير شك ـ فيما يلاقيه المسيحيون من تعذيب وموقف الشهداء المطمئن من ذلك ، بل وغضب رجال الشرطة ، نوع من الإعلان والدعاية للأفكار الجديدة بدل أن يقضى عليها.

وأخيراً فرضت تلك الاعتقادات نفسها على الخاصة المثقفة .

استمداد المسيحية من الفلسفة :

وحينئذ حدثت ظاهرة ليست فى الواقع غريبة ، غير أنها رائعة : كان المثقفون فى الإمبراطورية الرومانية على علم بآراء شيشرون وبما للفلاسفة من مذاهب . كانوا على علم بأفلاطون وأرسطو وأبيقور والرواقيين . فلمَّا قدمت لهم الأخلاق الجديدة المُوحَاة من إله التوراة والإنجيل ؛كمجموعة من الاعتقادات لا تحمل أى دليل عقلى راحوا يسائلون أنفسهم :

أليست هذه الاعتقادات ـ فى جوهرها على الأقل ـ تتفق مع بعض ما لفلاسفة اليونان وروما من مذاهب مُبرهَنة مدعَّمة ؟

= كانت الإنسانية المحرومة من عاطفة الإخاء الإنسانى العام إذ ذاك بحاجة ماسة إلى مثل الدعوة المسيحية التى بهرتها بتلك النغمة الرطبة الحنون ، نغمة الإخاء والمحبة والتسامح . فلا عجب ـ إذن ـ أن يسارع إليها أولئك الذين دخلوا فيها أفواجاً ويستبدلونها بديانات لم يكن فيها للإنسانية شىء مقنع.

يعلن العهد القديم وجود إله واحد قوىّ خَلَقَ العالم ولا يزال يحيطه بالالتفات .

ـ ألاَ يوجد عند «أفلاطون» وعند «الرواقيين» براهين تنحو نحو إثبات إله موصوف بما تقدَّم من صفات ؟

حقيقة إن إله أفلاطون وإله الرواقيين لا يماثلان تمام المماثلة إله العقيدة (**اليهودية ـ المسيحية**).

غير أن الأدلة والبراهين التى استخدمت لإثبات وجوده وحقيقته من الممكن أن تُستخدم من جديد .. ولعل لها معنى لم يقصده المحتجون بها . فَلِمَ لا تؤخذ فتهذَّب وتعدَّل وتكمَّل وتُستخدم لغاية دينية محضة ؟

يدعو الإنجيل من اتَّبعوه إلى التفكير فى حياة أخرى وأن يجمعوا الثروة التى لا تفنى والتى يستمتعون بها بعد أن يفارقوا هذا العالم ، فهو يؤكد بذلك خلود الروح والجسم.

ـ ألم يحاول « أفلاطون » أن يبرهن على هذا « الخلود » فى كتابه (**فيدون**) ؟.. ألم يستعمل شيشرون بلاغته فى البرهنة عليه ؟

هذه المذاهب اختلطت بدون شك ـ فيما نحن بصدده ـ بالفيثاغورية . على أننا إذا أهملنا بعض ما فيها فقد يمكن ـ لتأكيد وتقوية الإيمان الناشئ ـ استعارة بعض أدلة عباقرة الفلاسفة الوثنيين فيما يتعلق بالخلود ؟

يصوِّر العهد القديم ، ويصوِّر الإنجيل إلهاً يأمر الإنسان بالسير على

نمط خاص. أليس عند أفلاطون وتلامذته آراء تلقى بعض الضوء على ما تأمر به تلك الكتب المقدسة ؟ .. يشرح **أفلاطون** فى كتابه (**طيماوس**) كيفية تكوُّن العالم ، فيذكر أن الله كلَّف بذلك العقل الفعَّال ، وكان هذا العقل يعمل على طريقة من يصنع التماثيل . وبما أن من يصنع التماثيل يكون عنده أصل يعمل على نسقه ومادة يصوغها فقد كان لدى العقل الفعَّال المُثل الخالدة لكل الممكنات ، وتحت يده مادة يتصرف فيها فيجعل منها مشخَّصات تشبه الأنواع الخالدة التى يتأملها ، وقائده فى كل ذلك هو المثال الأعلى أو مثال الخير.

تلك هى فلسفة أفلاطون فيما يتعلق بتكوين العالم . ما علينا لو غيَّرنا قليلاً فى الألفاظ ؟ ألاَ يمكننا بتلك الطريقة أن نلقى ضوءاً على فكرة العهدين ـ القديم والجديد ـ فيما يتعلق بهذا الخالق للأشياء الذى خَلَقَ الإنسان أيضاً ليعمل الخير ويتطهر ؟

نشأ هذا الاتجاه العام منذ القرن الأول الميلادى ، وظهر فى قوة عند الآباء اليونانيين والآباء اللاتينيين . ورغم ما كان بينهما من فروق بسيطة فإن الغاية التى كانت تقودهما واحدة. إنه لا جدال ولا مشاحنة فى الإيمان لأن الوحى معصوم . وليس فى العهدين ـ القديم والجديد ـ كلمة واحدة ليست حقاً . وكل فلسفة لا تلتقى مع أحدهما فهى خطأ محض ؛ لأنها تتعارض مع ما أنزله الله.

ـ ولكن أيستلزم هذا العدول عن كل فلسفة ؟..

كلاَّ ؛ فالإيمان فى حاجة دائماً إلى الفهم وفى حاجة إلى الأدلة العقلية التى تبرهن عليه ، وتجعله أكثر خصوبة .. فَلِمَ الابتعاد - إذن - عن كل فلسفة ؟ .. ولِمَ العدول عن براهين إذا هُذِّبت وحُوِّرت أقنعت الوثنيين والملاحدة ؟ .. لا شك أن العقل واحد ، وأن الاعتقادات التى ذكرتها الكتب المقدسة هى نفس الآراء التى تفرضها علينا الأدلة والبراهين العقلية البيِّنة غير أن هذا العقل نفسه لاشك أنه محدود ولاشك أن بعض الحقائق فوق العقل ؛ مثل الحقائق التى تتضمنها « **المساتير** » ، إلا أنه مما لا ريب فيه أن الإيمان لا يناقض العقل . هناك ـ إذن ـ جانب لا نفهمه ، ولكننا نعلم أنه حق لأنه مُنزَّل ونعلم أنه لا يدخل فى دائرة اللامعقول ، وإذا لم ندركه فما ذلك إلا لقصور فى عقلنا .

ذلك هو التيار الذي نشأ منذ أن بدأت «الفلسفة المسيحية» .. واستمر خلال العصور المتطاولة ولا يزال إلى اليوم عند المسيحيين الخُلَّص .

أما ما أقامه « العقل » على أساس الأخلاق (**اليهودية ـ المسيحية**) من مذاهب وآراء حاكى فيها الفلسفة اللاتينية أو استعارها منها فقد كان خصباً مزهراً فى عدة فترات .

وأولى هذه الفترات : هى الخمسة قرون الأولى فى تاريخ المسيحية ، حيث ظهر الإنتاج اليونانى **للقديس (كليمان) الإسكندرى و (أوريجين)**

و (أتناز) والقديس (جريجوار دى نازينز) والقديس (جريجوار دى نيس) . وحيث ظهر الإنتاج اللاتينى **لجوستين ، وترتولين ، وأرنوبا ، ولكتانس ، والقديس أمبرواز ، والقديس جيروم ، والقديس أوغسطين ، وبويس ، وكيودور .**

أما الفترة الثانية فقد كانت بعد الخمول الذى نشأ بسبب الغزو البربرى ـ أى : فيما بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر ـ حيث الجدال حول وجود الكليَّات أو المُثل الأفلاطونية فى الخارج . وحيث تعارض من يقولون بذلك مثل **جان آسكت أريجين ، والقديس أنسلم ، وجيوم دى شمبو** ، مع من يقولون إنْ هى إلا أسماء سمَّيتموها مثل **روسلين** ، ومع من يتوسطون فيقولون بوجودها فى الذهن فقط مثل **(أبيلارد)** الذى كان زعيمهم فى ذلك.

وأما الفترة الثالثة فقد كانت فى القرن الثالث عشر ؛ حينما أخذ الغربيون فى الاطلاع على « الشروح العربية » لفلسفة « **أرسطو** » .. وعلى الخصوص شروح **ابن رشد** . وكانت تلك الفترة فترة عظيمة الشأن حيث تكونت فيها مدارس **(ألبير) الكبير ، والقديس توماس أكوينى، والقديس بون افنتور ، ودن سكوت ، وأخيراً مدرسة جيوم دوكام** . كانت فترة صراع ، وتدقيق وغضب ، وانقسامات دينية ، وضغط مختلف ألوانه . فلم يغيِّر كل ذلك من الفكرة الأساسية التى استمر تيارها خلال العصور.

استمر «العهد القديم» و «العهد الجديد» ـ إذن ـ المقياس للحقيقة الأخلاقية . أما ما عداهما من فلسفة تؤيدهما فليس إلا أبَّهة من السهل التخلِّى عنها غير أنها مفيدة فى إقناع الملحدين وضعاف الإيمان.

هذه « الفلسفة » التى تؤيدهما ليست مجهولة المصدر ؛ بل أخذت عناصرها الأولى من أفلاطون ، والرواقيين ، والأفلاطونية الحديثة . وطُعِّمت ـ فيما بعد ـ بفلسفة أرسطو ، رغم أنها تكاد تكون على طرفى نقيض مع المسيحية . ولذلك اقتضت عملاً مجهداً منهكاً مؤلماً حتى ذُلِّلت فأمكن التوفيق الذى قام به القديس **توماس أكوينى** وأتباعه ، فصهروا كل ذلك فكوَّنوا منه مذهباً واحداً يرجع الفضل فى توضيح أصالته إلى المؤرخ المعاصر الأستاذ **جيلسن** .

ـ ماذا أنتج هذا المجهود الهائل فيما يتعلق بالأخلاق المسيحية ؛ لكى يستند أساسها إلى العقل ؟ ..

لقد بدأ أولاً فى البرهنة على وجود الله ، واستعمل فى ذلك البرهان الذى يلجأ إليه الكثيرون والذى قال به شيشرون فى بعض مؤلفاته ، وقال به غيره من الفلاسفة حينما أرادوا إثبات إله كله عناية وكله قوة وكله رحمة . وأعنى به : « البرهان » بطريق العالم .

العالم موجود ؛ فله – إذن– علَّة أوجدته .

هذه العلَّة لابد أن تكون قوة قادرة على صنعه ، ولا يمكن أن تكون كذلك إلا إذا كانت إلهاً .

ثم إن العالم مادة ، والمادة لا تتحرك بنفسها ؛ فلابد ـ إذن ـ من وجود كائن يبعث فى العالم الحركة .

وفى العالم نظام بديع يسود سير الكواكب والنجوم ؛ فهل يفسَّر بشىء آخر غير كائن ذكى قادر على صنعه والاحتفاظ به ؟

وهذه الحيوانات؛ ألم تُخلق أعينها للرؤية ، وآذانها للسماع ، وأرجلها للسير ، وأجنحتها لتطير بها ؟ .. أمن الممكن تعليل ذلك بدون أن نلجأ إلى صانع حكيم خَلَقَ كل كائن لحياة خاصة ، وجهَّزه ـ من أجل ذلك ـ بأعضاء وغرائز ضرورية لحياته ولاستمرار نوعه ؟

اعتمدت المسيحية كل هذه الأدلة وابتدعت غيرها،وذلك كالاستدلال على وجود الله بالممكن أو الممكن جوهراً ، إنه فكرة عن نوع من الأشياء يجوز حدوثه . ولكن الفكرة لا توجد من نفسها ولا توجد ـ قَطُّ ـ إلا فى ذهن كائن يحملها ويفكر فيها . ولـمَّا كان عندنا ما تحقَّق وجوده فقد ثبت وجود الممكن.ودائماً توجد جواهر ما دام هناك وجودات ، وكذلك يوجد الكائن الذى يفكر فى الممكنات والجواهر . كل ممكن أبدىّ الوجود ، فيجب أن يتصف ذلك الكائن بوجود أبدىّ .

هكذا الدليل التجريدى الذى وضعه **القديس أنسلم** وأخذ به **ديكارت** بعد حين .

الله ـ وحده ـ الكمال المطلق.الكمال المطلق مجموع الكمالات الممكنة

التصوُّر . الوجود كمال ؛ فكيف يمكن - إذن - ألاَّ يتعلق بذات الله ؟ وأن **(الكلىّ الكمال)** لن يمكن أن يكون إلا **(الموجود الكلىّ الكمال)**.

تلك قواعد أساسية المنطق حولها من ناحية، وبلاغة الوعظ من ناحية أخرى[1]. وكم من أجيال ذات أفكار عالية قد اعتبرتها قواعد عقلية.

وإنه ليس وجود الله فقط هو كل ما ادُّعى برهنته بهذه الطريقة بل كذلك ادُّعى فى البرهان على خلود الروح .

وإنه لمن غير المستطاع - فى الحقيقة - أن يُعاد ذكر جميع الحُجج التى صاغها « **أفلاطون** » فى كتابه (**فيدون**) وإن بعضها لَذَاتُ طابع سوفسطائى صريح.. لكن على الأقل يمكن أن يُعاد ويُستكمل بعضها[2] .

ولقد وضعها «أفلاطون» هكذا : الجسم يمكن أن يفنى دون أن تفنى الروح . وإن بينها وبينه - فى الحقيقة - لَتمايزٌ بعيد المدى . هى متحدة به ، ولكنها ليست ناتجة عنه . وإنها ليست بالنسبة إليه كانسجام اللحن بالنسبة إلى المزهر . لن يقال فقط إن من الممكن أن توجد الروح بعد انحلال البدن، بل إنه لَواجبٌ أن تحقِّق الروح ذلك الوجود .

---

(١) يعنى أن رجال المسيحية كانوا يحاولون بشتى الوسائل أن يصلوا إلى غرضهم من تبرير دعاواهم الدينية تدفعهم الحماسة إلى ابتكار شتى الوسائل ومختلف الأساليب من بلاغة فى الوعظ، وتفنن فى الصياغات المنطقية ، ومع كل هاتيك الجهود فإن الفلاسفة العقليين لم يبهرهم ذلك الطلاء الملون بشتى الألوان، ولا منعهم من المضى فى نقدهم المدمر حتى إن تلك القواعد طالما حسبتها الأجيال قواعد عقلية حقيقية.

(٢) أى: من الممكن فى نظر رجال المسيحية استمداد بعض أدلة أفلاطون فى هذا الموضوع مع بعض تعديل فى أسلوبها يكسبها قوة.

إذا كـان البـدن يفنى ؛ فـذاك لأنه يمكن أن ينحلَّ ، وإذا كـان يمكن أن ينحلَّ فذاك لأنه مركَّب فيه أجزاء . أما الروح فهى أصلاً من عالم البسائط إنها ليـست ذات أجزاء .. كيف يمكن ـ إذن ـ أن تتـفرق ؟ .. إن روحـاً لا يمكن أن تُخلق إلا من العدم . إنهـا لا يمكن أن تختفى إلا إذا دخلت فى العدم . وإدخالها فى العـدم حينئذ محال . وإن اللَّه ـ فى رحمتـه ـ ما كان ليريـد ذلك . ولذا يشعر الإنسـان شعـوراً عـميقـاً أنه مخـلوق للخلـود . أليس ينال نصيبـه مـن الخـلود بمعـارفه العقلية ؟ ألاَ يـشعر أنه مكلَّف بأن يسعى أبداً لتكميل نفسه؟ (١) . ومن المقرر ـ علاوة على ذلك ـ أن الإنسان حر الإرادة . إنه يشعر فى نـفسه بتجربة مباشـرة ، بالقدرة على أن يثبت أو ينفى شيئاً من الأشياء ، وأن يعمله أو لا يعمله .

وإن هذه القدرة – فى رأى المسيحية – لَذَاتُ أهمية رئيسية :

ـ بدون تلك القدرة لن يُحكم بأهلية ولا بعدمها .

ـ كمـا أنه لن يُستطاع الكلام فى بيان الخطيـئة الأصليـة ، ولا الكلام على ظهور الشر فى العالم كعقوبة راصدة عليها .

ـ بدون تلك القـدرة كـيف يمـكن أن يُطمـأن إلى العـدل فى عـقـاب الإنسان على جرائمه وثوابه على حسناته ؟

---

(١) تلك هى براهين أفلاطون التى أرضت رجـال الكنيسة . لم ير فيهـا الفلاسفة شيئـاً مقنعاً للعقل لأن أكثر دعـاواها لم يقم عليها برهان عقلى حاسم . فهـو – مثلاً – لم يدلل على ضرورة عدم فناء الروح كمـا يفنى الجسم ، ولا على كونها غير ناتجة عنه مع أنهـا متحدة به.. وهكذا.

وإنه لمؤكد أن المطابقة بين قدرة العبد النافذة وسابق علم الله تعالى الأزلىّ تستلزم شيئاً من التكلُّف .. وكذا التوفيق بين جبروته ، ورحمته اللانهائية . بيد أن رجال الدين يقررون أن مصير ذلك كله إلى التوفيق فى كل دعوى تُمسك جيداً بالعصا من الطرفين (١).

كلنا يحس من نفسه بحرية فاعلة .. والعقيدة والعقل يؤكدان وجود الله .. فإذا ما بقى شىء من «الغموض» حول الطريقة التى ينسجمان بها ، فإن هاتين الحقيقتين أرفع من أن ينالهما ارتياب(٢).

وها هو ذا العمل المتوِّج لكل هذه الفلسفة . إنه نفس الفكرة التى نُدعى إلى اعتقادها فى الله :

إن «طيماوس» - كما قلنا سابقاً - يقدم لنا العقل الفعَّال مسوِّياً

(١) أى :تؤمن بالشىء ونقيضه، فتؤمن بحريتنا أولاً، ثم تقرر أنه لا تنافى بين ذلك وبين وجود اللّه الذى يستتبع أن مردَّ كل عمل وكل شىء إليه، والحق الذى لا مرية فيه أن محاولة إقناع الفلاسفة العقليين، فى هذا الموضوع - على هذه الصورة - لا يعد أمراً ممكناً. وإذن: فلا بد إذا ما حاولنا إقناعهم - من طريق العقل - أن نقول بـ (الإقدار)؛ أى : إيتاء اللّه تعالى العبد قدرة على الفعل وعلى الترك فتثبت له بذلك الحرية التى هى مناط التكليف. ولن يكون فى هذا ما ينافى قدرته تعالى وهى المقدرة والواهبة القدرة والتى تستطيع أن تسلب فى كل حين كما تستطيع أن تَهَب. وعندئذ لا يبقى وجه لاعتراض القائل : ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء.
وكذلك مسألة تعلُّق علمه تعالى الأزلى، على الوجه الذى قررناه ، لا تنافى أن يكون للإنسان إرادة مخلوقة له تعالى، وأن يكون علمه الأزلى متعلقاً بما يصدر عنها من سعادة العبد أو شقاوته جزاءً وفاقاً.

(٢) لقد كان برهان الكنيسة - بهذه الطريقة - مدعاة لتلك السخرية اللاذعة.

العالم على ضوء المثل الخالدة من المادة التى لم تصوَّر بعد .

وإن هذه الأسطورة لَنابيةٌ عن الذوق . إنها مع ذلك تعطى عنه صورة أولية من الحقيقة . فلنُجرِّدها عما فيها من غلوٍّ مادىٍّ لكى ندرك ـ مع طبيعة الله الحقيقية (سبحانه وتعالى) ـ المفتاح الحقيقى لهذا الكون ومفتاح الأخلاق .

إن الله (تعالى) يملك علماً وإرادة ، وإن علمه يكشف له أبداً :

١ـ الممكنات ، ونعنى بهذا نوعين من الأشياء :

أحدهما ، أنواع الممكنات ، الجواهر التى كان « أفلاطون » يسميها المُثُل الخالدة للأشياء [١] .

ثم تلك الجماعات من أفراد الممكنات التى تؤلف كثيراً من العوالم المتحققة لعالم الحس ، والتى يمكن تحقيقها ، وإن منها لما يجلُّ عن الحصر .

٢ـ الحقائق الأبدية ، وهى أيضاً تتجلى فى نوعين :

فمنها قواعد نظرية كما فى هذا المثال « **الكمِّيتان اللتان تساوى كل**

---

(١) هنا تتورط الفلسفة المسيحية فى مأزق خطير إذ تقلد أفلاطون فى القول بهذه النظرية التى لم يقم عليها أى دليل عقلى مقنع ، بل التى قام الدليل على بطلانها من صنيع أرسطو نفسه. فليست بهذا صالحة حتى لمجرد القول بوجودها فضلاً عن صلاحيتها لأن تكون متعلَّق علم الله بأنها موجودة. أو بعبارة أخرى لأن تكون ركناً من أركان علمه تعالى كما تدّعى الفلسفة المسيحية ؛ وهى الممكنات الجواهر ، وأفرادها ، والحقائق الأبدية بنوعيها النظرى والعملى .. وهكذا يقود حب الظهور الفلسفى إلى حشر نظرية المثل الأفلاطونية الخيالية لكى تكون قاعدة من قواعد المعتقدات الدينية بعد ما أصبحت فى عالم الفلسفة أسطورة من الأساطير . ولو أن المُدَّعَى كان مقصوراً على الحقائق الكلية للممكنات والحقائق الجزئية لأفرادها لكان أوفق.

منهما كمية ثالثة من نوعهما تكونان متساويتين»[1]. ومنها قواعد عملية كما فى هذا المثال « **لا تعاملْ أحداً بما لا تحب أن تُعامَل به**[2] ».. كل ذلك يعلمه الله ـ أبداً ـ بعلم لَدُنِّىّ ليس علمنا النظرى بالنسبة إليه أكثر من صورة هزلية باهتة .

أما إرادته تعالى فوجهتها الخير المطلق . وليس هذا الخير شيئاً آخر غير الله[3] . وإنه تعالى لَيحبُّ ذاته فوق كل كائن[4] ؛ ومن أجل ذلك يكمِّل كل ما يعمل .

يجب أن نميز بين زمنين فى فعله – تعالى – الإرادى :

● فى الأول تكون الإرادة مهيِّئة ؛ هى تتجه نحو الخير الأعلى .

---

(١) ونحو «زوايا المثلث المتساوى الأضلاع تكون متساوية» وهكذا جميع النظريات الرياضية التى أصبحت من الضروريات العقلية.

(٢) تمثيل غير موفق ولا يصلح للتقعيد فإن من خواص القواعد أن لا تُخرق ولا تختلف نتائجها عند التطبيق، أما فى هذا المثال فأدنى تأمل يظهر ما فيه من عدم الاطّراد إنْ فى منطوقه وإنْ فى مفهومه . ألا يحدث ـ أحياناً ـ أن تكون طبيعة المرء تكره بعض أطايب المأكول والمشروب ثم يكون من المتعين عليه أدبياً أن يقدمها أحياناً لضيفه وخصوصاً فى الولائم العامة ! إن الأذواق تكاد تختلف بعدد اختلاف الأشخاص وبالتالى يكون ما يعجب هذا غير مستساغ فى نظر سواه وبالعكس. وهنا تحتاج المعاملة إلى خبرة ودراية شخصية وبصر بالظروف والمناسبات. أما أن يقيس المرء جميع الناس بقياس شخصه فأمر يدعو إلى الخلل فى أدب السلوك. وإذن : لا يصدق هذا المثال إلا بوجه جزئى، وهو أن تكون الأهواء والطبائع بين المتعاملين متفقة وأن يكون الأمر المحبوب لا تأباه الأخلاق ولا يحرِّمه الشرع.

(٣) هذا ـ بعينه ـ نظرية أفلاطون فإن مثال الخير عنده يساوى الله .

(٤) أى: ولما كانت ذاته ليس شيئاً آخر سوى هذا الخير فإنه يحبها حباً فوق كل شىء،ولما كان حبه لها حباً للخير كانت إرادته تقتضى دائماً تكميل كل ما يعمل لأن الكمال خير.

● وفى الثانى تكون الإرادة منفَّذة .

والله سبحانه لا يمكن أن يخلق الخير المطلق لأن ذلك سيكون معناه أن يبدأ من جديد خَلْق نفسه، وحينئذ هو- سبحانه- يحقق كل ما هو أكثر اتجاهاً إلى الخير المطلق .. نعنى ـ بذلك ـ تحقيقه الكون على أحسن ما يمكن.

وإنه ـ بالضبط ـ لـمَّا كان الله سبحانه يريد الخير كما يريده، كان كل ما فى العالم على وفق مراده. ولقد خلق الله ـ سبحانه ـ كل شىء ميسَّراً لغاية مقدورة له [1] وهذا الحظ المقدور محتَّمٌ فى كل خَلْقه : أُعطى الطائر جناحين ؛ وما ذاك إلا لأن الله خلقه ليطير، ومُنحت العنكبوت قدرة نسج بيتها ؛ وما ذاك إلا لأن الله قدَّر لها أن تعيش على تصيُّد الذباب.

أما الإنسان فقد مُنح عقلاً نظرياً ؛ وما ذاك إلا لأن الله أراد إعداده لإدراك الكون والإيمان بمبدعه.

وللإنسان أيضاً شعورٌ أخلاقىٌّ ؛ وما ذاك إلا لأن الله أراد منه أن يعرف كيف يجب أن يسير فى حياته، لكى يسير فى الحقيقة كما يجب .

أىُّ مذهب هذا ؟ إنه ناشئ على التحقيق من **الميتافيزيقا الأفلاطونية**. ولكنها أفلاطونية معدَّلة، منقَّاة من عناصر الوثنية، موافقاً بينها وبين الغاية المطلوبة التى يسرُّونها فى أنفسهم : وهى تجهيز الأخلاق (**اليهودية ـ**

---

(١) أى : وهذا دليل على أن العالم بجميع ما فيه خير؛ لأنه كان مراداً لله الذى إرادته خير ولا تريد إلا خيراً.

المسيحية) بما ينقصها من الحجج الضرورية لكى يمكن ـ بمساعدة أدلة ذات ظاهر عقلى ـ إقناع النفوس بضرورة الخضوع لقواعدها .

وفى الحقيقة : إذا كان الله قد منحنا ضميراً أخلاقياً لنشعر به باطنياً بما هو الخير والشر والعدل والظلم ، كما منح الطائر الخطَّاف جناحيه ، وإذا كان سبحانه بنعمة سابقة قد أراد فوق ذلك أن يجىء على هذه الأرض ليوحى بواسطة موسى وعيسى ، ما يجب علينا فى سيرتنا ، فأىُّ شك بعد ذلك يبقى فى طريق اتجاه كل إنسان إلى أن يطبع حياته بما يجب؟ (١)..

والآن عندنا ما نقنع به ـ بإزاء هذه النقطة ـ أكثر المماحكين جدلاً. وستكون العناية الأولى للواعظ المسيحى أن يلجأ إلى العقيدة ، وسوف يقول لمريديه :

خذوا أنفسكم بكذا من السلوك ، إن ذلك هو الأحسن ، لأن الكتاب المقدس يؤكده ، والكتاب المقدس تنزيل من عند الله .

ولن يكتفى بذلك ؛ إنه سيقصد إلى عقول سامعيه ، وسيبذل قصارى جهده فى إقناع عقولهم ؛ لو أنه يملك مبادئ الفلسفة المسيحية فلا شىء سيكون أسهل عليه من ذلك .

---

(١) تلك هى دعوى فلاسفة المسيحية تمضى فى سبيلها على أمل أن تجد طريقها إلى العقول فلا يستعصى عليها غرض.

إن الأفهام والطبائع ليست بدرجة واحدة من العلو . إن منها الخارق ، ومنها المتوسط ، والضعيف .

إن المبادئ الدينية تُفضى ـ لحسن الحظ ـ إلى إقناع هؤلاء وأولئك. إن العقل ليشعر ـ فى الحقيقة ـ بأنه يجب أن يخضع لله ، عن تعظيم له، وعن محبته ، وعن خوف من غضبه : ثلاثة أوتار معدَّة لأن تُحرَّك ، وسوف يكون لها صداها .. بعضها يؤثر فى بعض النفوس ، والبعض يصلح لنفوس أخرى .

ـ إنه لواجبٌ أن يقدَّم التعظيم لله(تعالى) ، وأن تُطاع إرادته . ذاك هو ما تستشعره النفوس الرزينة المعتدلة.

الله!.. أليس أبا الطبيعة وأبانا على الخصوص ؟

أليس حكيماً بلا نهاية ، وبصيراً بلا نهاية ، وعادلاً فى أوامره ؟[1].

---

(١) هذا الفريق ـ وما بعده من الضربين الآتيين ـ لا يكاد يخلو منهم دين من الأديان ، إذ من الواضح أن الدوافع الدينية لا تتحد فى نفوس جميع الناس على السواء؛ إذ منهم المدرك لجلال الله وكماله وما يجب له من الطاعة وجوباً لا تشوبه شائبة . ومنهم الرقاق الطباع الميالون إلى الانجذاب العاطفى والفناء فى المحبوب. كما أن منهم فريقاً أقوى دوافعهم تنحصر فى طلب الثواب ، أو الخوف من العذاب .. تلك هى خليقة الناس وجبلَّتهم فى كل زمان ومكان ، ولكن الفلاسفة العقليين يسخرون من هذه الظواهر ومن أساليب الوعظ المختلفة التى أعدها لهم فلاسفة المسيحية ، كل بما يناسبه ، والحق أن رجل الدين فى كل زمان ومكان لا يجد مندوحة عن هذا المسلك بإزاء تلك الطبائع ؛ إذ لو سلك معها على ما يعجب أولئك الفلاسفة من مخاطبة العقل وحده لاستعصى الإصلاح وانتشر الفساد أضعافاً مضاعفة.

يجب أن نحب الله وأن نفنى فى أوامره .. ذاك هو ما لا تخلو من الشعور به النفوس المرهفة الحس .. أليس هو الحنَّان المنَّان ؟.. أليس إله الحب ؟.. أليس إله الرحمة ؟ أليس الإله الذى أراد أن يذوق الألم كإنسان لكى يعطى القدوة ويخلِّص الإنسانية ؟

يجب أن نخشى الله، وأن نرهب نقمته، وأن نسترضيه . هاك ما تحسه أيضاً أدنى النفوس وأصغرها . تلك النفوس التى لا يرهف حسها سوى تجاوب الأصداء الأنانية فى أشد الطبائع حذراً.

التمرُّد على الله!.. إن ذلك معناه أن يتعرض الإنسان لنقمته الخالدة.

طاعته !.. إن معنى ذلك أن يربح الإنسان لنفسه سعادة لا تنتهى أبد الآبدين .

تلك مباحث آية فى الإعجاب .. نجد فلاسفة المسيحية ووعاظها قد استخدموها طيلة عدد من القرون ، ولا يزالون على ذلك حتى اليوم.

وإن أولئك المقرّظين لا يختلف بعضهم عن بعض إلا بأنهم يخاطبون إما شعباً جدَّ مفكر ، أو جدَّ حسَّاس ، أو جدَّ دهمائى . ومن هنا يتخذ بعضهم لهجة تعظيم وتقديس مؤثرة ، وآخرون فى لهجتهم جذبة الحب ، وسواهم يعمد إلى التنزُّل إلى لهجة الحذر . ولكن نواحى حجتهم لا يعارض بعضها بعضاً .. إنها تنسجم ، ويكمل بعضها بعضاً ، وتتمازج . وإنه ليس فقط تلك « البرهنة المتعارفة » هى كل ما تؤدى إليه الأخلاق

الدينية (**اليهودية ـ المسيحية**) . بل إنها لتعطى فوق كل ذلك قاعدة أخرى ، للحصول ـ فى كل حالة ـ على المبادئ الضرورية للسير .

بهذا التقديس، وهذا الحب، وهـذا الحذر، يجب أن تتوجَّه الإرادة إلى إرضاء الله.

ولكن ما الذى نعمل لكى نصـل إلى رضاه ؟ .. إن الله قد تجلَّى على الناس ظاهرياً فى شخص «المسيح» عليه السلام. .!!!..

وإنه ليتجلَّى باطنياً على كل فرد فى ضميره الأخلاقى . وما نرى المقام بحاجة إلى توضـيح أكثر . لكى نسير سيـرة حسنة يجب - فى كل حال - أن نتخـذ المسيح عليه السـلام مثالاً يُحتـذى . يجب أن نطبِّق سلوكنا على سيرته .

هاك المبدأ . ومن ورائه المفسرون يظهرون أكـثر أو أقل شدة ، أكثر أو أقل تفلسفاً. (**أن يُتخذ المسيح قدوة**) هذا أمر يحتِّم خطة حـاسمة فى نظر بعضهم .. خطة تجعل من الإنسان ناسكاً وراهباً.

ولنقرأ هذا السِّفر الطريف (**محاكاة المسيح**)..

إنه سفر من أكبر أسفار التبتل المسيحى ؛ ولنطلب بين صحائفه مظاهر الحياة المسـيحية بمعناهـا الصحيح. وإن ما نجده فـيها لمعبِّـر عن الحال بأبلغ عبارة :

احتقار أساسى لكل علم .. وحتى ليشمل ذلك علم الإلهيَّات .

احتقار أصيل لكل ما نسميه خيرات هذا العالم : الثراء ، والشرف ، والمركز الاجتماعى، حتى المركز الوسط.

وإنه لحتمٌ أن نستشعر ـ دائماً ـ التواضع ، والندم ..

وأن نمارس عملياً ـ على الدوام ـ التضحية وكل مظهر تمليه الرحمة.

وأن نشتغل ـ اشتغالاً دائماً وقاهراً ـ بالصلاة ..

وأن نجمع حواسنا فى صمت وذهول تام وتأمُّل دينى ينسى المرء فيه كيانه . .

يجب أن نقتل فينا كل ميل دنيوى .. يجب أن يموت عالم الرغبة .. يجب أن نبدأ ـ من هذا العالم الزائل ـ ما سوف يكون لنا الوجود الأبدى.

عظمة وعلاء !.. ولكن قضاء قاس على الإنسانية .. وإن التطبيق الكامل لمثل تلك المبادئ يمكن أن يملأ الأرض بأديرة فيها الرجال من جهة ، والنساء من جهة أخرى ، ينتظرون ـ فى طهارة وتأمُّل ـ الزوال النهائى للنوع الإنسانى .

ولكن أسفار « الأخلاق المسيحية » ـ العادية ـ أقل تنسُّكاً ، وأقل طلباً للتكاليف .. يمكن أن يُقتدى بالمسيح دون التوارى خلف أسوار الأديرة . والكتب المقدسة تحوى قواعد أخلاقية شرعها الله نفسه. وضمائرنا تشعرنا ـ من ناحية أخرى ـ بكل ما لها من جلاء .. فلنتخذها كقواعد عملية من فوق كل شك وارتياب .

ولنضرب ـ مثلاً ـ بتلك العبارات المأثورة:

«لا تعاملوا الناس بما لا تحبُّون أن يعاملوكم به . أحِبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك . لِيُحِبَّ بعضُكم بعضاً ». ومثل هذه المبادئ التى تضعها الكنيسة الكاثوليكية تحت اسم (**وصايا الله**).

وإن الإنسان لسوف يكون مسيحياً ما دام حياً فى هذا العالم ، لوأنه يعتمد ـ فى كل مقاصده ـ على تلك القواعد الجوهرية للسلوك . وسوف يكون ـ إذا ما عمل ذلك ليُرضى ربه ـ مستعداً لقبول أحكامه ، ولقبولها بسرور .. إن الرهبانية الكاملة لا تكون إلا لبعض الناس.. أما الحياة الدينية فإنها للجميع ؛ بلا استثناء .

●●●

فلاسفة المسيحية الحقيقيون

وبجانب الوعاظ الأخلاقيين العاديين يوجد - من جهة أخرى - الفلاسفة الحقيقيون ، وهؤلاء لا يقولون بغير ما يقول أولئك الوعاظ أنفسهم .. ولكنهم ينقِّبون عن أعمق المعانى للوعظ المسيحى.

ولنقرأ مثلاً (**مبحث الأخلاق**) تأليف **مالبرانش** . إنه يلخص ويحدد فيه خلاصة المذهب العقلى المسيحى : إن علم الله يدرك - بأزلية أبدية تامة - أعداد الأشياء وأشكالها ومعانيها الكلية . إنه يدرك علاقاتها . إنه يعلمها فى صورة حقائق نظرية خالدة لا تبديل لها ولا تحويل . ولكنه يعلم أيضاً ما فوق ذلك . إنه يوجد - بين الحقائق التى يعلمها - نِسَبٌ فى الكمال ، بعضها نازل وبعضها مُنيف . وإن الله لا يمكن أن يرى أو يخلق الكرة مكعباً ولا المثلث دائرة . إنه لا يمكن أن يرى أو يخلق نسبة تجعل الحجر أرقى من النبات ، ولا النبات أرقى من الحيوان ، ولا الحيوان أرقى من الإنسان ، وهناك حقائق خالدة نظرية[1]، كما توجد حقائق خالدة عملية والأولى تسمى «قواعد العقل النظرى» أما الأخرى فتسمى «حقائق النظام الأدبى» .

وإذن : فالله يريد النظام الأدبى بكل ما لذاته تعالى من قوة ؛ لأن النظام هو العدالة . والطريق الوحيد لإرضائه تعالى هو أن نتابعه بأن نريد

---

(١) الحقائق النظرية كنظريات العلوم . أما الحقائق العملية فالمراد بها ما يختص بالسلوك الإنسانى (الأخلاق).

النظام كما يريده هو نفسه . فيجب أن نعامل الحجر كحجر ، والبهيمة كبهيمة ، والإنسان كإنسان . إن الذى يُعنَى بحصانه أكثر من خادمه الخارجٌ عن النظام عاملٌ على غضب الله . وكذلك من يفضِّل عالماً ، أو بحَّاثة فى التاريخ ، أو كاتباً نابهاً ، على مُبشِّرٍ تقىٍّ رقيق الحال .

إن الذى يستطيع إرضاء الله هو - وحده - الذى يعرف كيف ينظِّم ، بفضل عنايته بالنظام واحترامه وحبه ومراعاته ؛ لأنه يعيش حسب روح التوراة والإنجيل وكنيسة الإله الذى هو عقل محض .. إنه يعيش حسب العقل .

وإنه لجدُّ مؤكَّد أن المتبتِّل الخالص ، والمؤمن الساذج ، والمسيحى العقلىّ الفيلسوف ، يختلف بعضهم عن بعض اختلافاً ظاهراً .. ومع ذلك تبقى فكرتهم الأولى واحدة : إلى الوحى (**اليهودى ـ المسيحى**) ، وإلى هذا الوحى الداخلى - الذى يُسمَّى الضمير - يجب أن تُطلب المبادئ التى يُعتمد عليها فى السلوك .

إنها تُفهم بواسطة هذا « الانسجام العجيب » للتقليد المسيحى الذى جلَّته حياة «المسيح» فى مجالى مجده ، وهذا الإلهام المباشر للحقيقة الأخلاقية ذات الشعور الواضح فى القلب . وإذن : فهذه النتائج الأولى ـ إذا ما استخلصت تماماً ـ فلا شىءَ أخفُّ على القلب من تطبيقها عملياً . إنه ليكفى أن يعرف المرء كيف يفكر بطريق الاستنتاج المنطقى . إن ظروف

الحياة العادية لا صعوبة فيها . وإن مأثور الدين والضمير لمتفقان على هذه القاعدة الأولية (**لا تُعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به**).

وإليك الآن أسئلة ـ تترتب على ذلك ـ : أيمكننى أن أسرق ؟ أيمكننى أن أشتم ؟ أيمكننى أن أخدع ؟ أيمكننى أن أجرح غيرى ؟ الجواب حاضر : أنت لن تريد أن يسرقك أحد ، ولا أن يشتمك ، ولا أن يخدعك ، ولا أن يجرحك. فلا تسرقْ - إذن - ولا تشتمْ، ولا تخدعْ ، ولا تجرحْ غيرك .

الأخلاق تؤسَّس كما تؤسَّس « العلوم الرياضية » .. الرياضى يرتِّب حدوده ، وقواعده ، ومسلَّماته ، ثم لا يكون عليه ـ بعد ـ إلا أن يستخلص منها النتائج المنطقية الضرورية . وعلى الأخلاقى أن يستنتج مثله . إن إلهامات ضميره ودراسة الكتب المقدسة يجب أن تمده بالقواعد الأولية . ولن يكون عليه - بعد - إلا أن يستخلص منها النتائج باستنتاج قياسى صحيح . حقاً ، إنه أحياناً - فى الحياة - قد توجد ظروف معقدة ، وإن صعوبة الاهتداء إلى ما هو عادل ، وطيِّب ، قد تصير أعظم وأكبر .. فماذا نصنع أمام حالة كتلك ؟

الفلسفة الكاثوليكية تجيب : استشر العارفين .

و«العارفون» هم ساسة الضمير ، هم القساوسة والرهبان ، المتمرِّسون بأعمال الاستنتاج الأخلاقى .

وإنه ليُشاهَد ـ منذ الوثبات الأولى للمطبعة [1] ـ كيف تتكاثر تلك الأسفار التى تبحث فى المسائل الأخلاقية .

إنها «معاجم» مدهشة فى الأخلاق؛ ليسير ـ على هديها ـ (معلِّمو الاعتراف) بين صفحاتها يطالع المرء جميع خوالج الضمير الإنسانى التى يمكن للخيال أن يلمَّ بها . وفيها يمكن أن يُمتحن ـ فى كل حالة ـ ما هو موافق أو مناف لشرعية الأخلاق ، وما هو من الخطايا من قبيل اللَّمَم ، أو من الموبقات . وفيها تُدرك الخطايا الأندر وقوعاً ، فالرذائل الأوفر دقة ، والمخازى الأكثر ريبة . ثم عديد من القروح الأخلاقية قد يكون منها فرصة للتدقيق ، ولابتكار أدوية ، ولاختراع طرق للعلاج .

تلك هى كتب الطب الأخلاقى ، وتلك هى مباحث الإفتاء .

وإذن ـ فى النهاية ـ ما هذه الأخلاق (**اليهودية ـ المسيحية**) مع كل مشيِّداتها الفلسفية ؟

إنها ـ ولا شك ـ بناء فخم الطراز .. وهو حتى على حاله التى يبدو فيها أن قواعده ـ على آخر تحليل ـ قليلة الثبات [2]، قد أدى إلى الإنسانية أجلَّ الخدمات طيلة عدد من القرون .

---

(١) أى: منذ بدأت المطابع تنشط بعد اختراعها بدأت تلك الأسفار الدينية تتكاثر وتتكدس، وقد كان لاختراع المطبعة آثار بعيدة المدى فى تقدم الفكر الأوربى ، ويعدها البعض عاملاً من عوامل النهضة الحديثة.

(٢) قد يبدو هنا أن فى هذه العبارة شيئاً من التناقض ، ولكن التأمل يظهر أن لا شىء من ذلك؛ لأن المراد من قلة الثبات قلّته فى نظر الفلاسفة العقليين. وهذا لا ينافى أن يكون=

وكل ما فيها يتقرر - فى النهاية - على هذا التأكيد : (**يجب أن يُنظر إلى الحياة على أنها ابتلاء**) . **والعالم ليس شيئاً آخر غير حجرة فسيحة الأرجاء لامتحان الأخلاق** [١].

والله يتولَّى الأمر . هو يريد من كل فرد أن يسير حسب قواعد ثابتة ، وهذه القواعد قد عرَّفها الله له بطريق الرسالات ، وبطريق العقل . وكل فرد له من القدرة [٢] ما يجعله حراً فى أن يطيع الله أو يعصيه . وفى كل ظرف من ظروف حياته - إذن - فرصة لكى يبدى ما له من أهلية[٣] أو عدمها .

أيتصرَّف كما يجب ؟.. إنه - إذن - يُرضى الله ؛ ويُحقِّق لنفسه رحمته.

أما فى حالة العكس فإنه يُسخطه ويجهِّز لنفسه شقاء الخلود .

وحينئذ على كل إنسان أن يفكر فى ذلك دائماً وعليه فى كل حال أن يسائل نفسه عما يريد الله منه أن يعمله .. ثم لينفِّذ - جهد استطاعته - ما يعتقده متفقاً مع توكيدات الإرادة الإلهية .

= البناء فى نظر المؤمنين بها فخم الطراز، وأن يبدو لعيونهم آية فى الجمال والعظمة، وأن ينتفع بها العالم المسيحى انتفاعاً ظاهراً طيلة عدد من القرون.

(١) أى أن العالم كله خاضع لامتحان دائم أمام الله ، وهو الذى يتولى أمر هذا الامتحان يبتلى به عباده ليرى عملهم وليعلم المطيع من العاصى؛ فالعالم هنا مشبَّه بتلك الحجرة الهائلة.

(٢) بناء على الأصل المسيحى فى حرية الإرادة ، وقد سبق الكلام عليه.

(٣) أى: أهليته لاستحقاق الثواب وعدِّه من الأخيار.

ومهما يحدث له بعد ذلك فعليه أن يَرضى بقضاء غير مردود . عليه أن يحتمله بسرور. لا يقول فقط : إن لى سيِّداً يجب أن أقبل أحكامه . بل عليه أن يقول : إن سيِّدى سيِّد طيِّب ، فإذا ما سرتُ سيرةً طيبةً ؛ فإن كل شىء سيتحول إلى خير من أجلى ؛ لأنه تحت إله كامل العدل (**كل شىء سيكون خيراً لأجل الأخيار**) .

تلك العبارات .. مضت قرون والفلاسفة ، والوعاظ المسيحيون ، يردِّدونها على مسامع الإنسانية المعذَّبة .

إن هذا النمط من « **التعاليم المسيحية** » مذهب مختلف جداً الاختلاف عن تلك المذاهب التى أقامها أخلاقيُّو العصور القديمة الوثنية[1] ؛ لأن هؤلاء كانوا يبحثون ليكشفوا عن مرامى الطبيعة الإنسانية وعن الوسائل التى تقنعها على هذه الأرض. إنهم يدعوننا إلى (**تفكير مستمر فى حياتنا**) حيث لا يكون للدِّين فيها إلا دور ثانوى.

أما ما يصيِّر الرجل مسيحياً ؛ فإنه شىء آخر : إنه (**التفكير المستمر فى الموت**) .. **فى الله .. وفى الدِّين** .

●●●

(١) أى: سقراط وتلاميذه ومن قلّدوهم من الأخلاقيين فى طريقة بحثهم عن أقوم سبل السلوك بطريق العقل قبل كل شىء.

مفكرو القرنين الـ ١٧ والـ ١٨م

وحتى بـدء القرن (١٧م) كانت طريـقة التفكـير والبحث فى المـسألة الأخلاقية لا تزال هى بنفسها طريقة المفكرين بالروح الدينية ، إنها لم تتوارَ طيلة ذلك العـصر . ولقـد ظلت إلى ذلك الحين وهى تمد ببـيانهـا المعهـود المواعظ المشوبة ـ كثيراً أو قليلاً ـ بالفلسفة التى كان يطَّرد سيرها فى العالم المسيحى . ومع ذلك ، فمنذ بدء القرن(١٧م) قد استشعر بعض الفلاسفة شكاً عميقاً نحو تلك الطريقة التى تُفهم بها الأخلاق[١] .

أما فى القرن (١٨م) فقد أخذت الحـركة تزداد حدة ، وأصبحت تهدد بتدمـير كل شىء .. عداوة عارمـة نحوها ، بعد كل ما أدركت من مـجد . وأين ـ إذن ـ الأسباب الأساسية لذلك ؟ .. إن الأسباب كلها ليست من قبيل واحد .

السبب الأول « تناقض النصوص الدينية » :

إن السبب الأول من بين أسبـابها هو ظهور التصانيف الأولى لتـفسير العهد القديم تفسيراً مستقلاً حراً[٢] .

---

(١) أى: فى تعاليم المسيحية.

(٢) أى: غير خـاضع للسلطة الدينية القائمـة التى تفرض سلطانها على مثل تلك الـتعاليم ، وغير مقلد لـلطرق التى كانت متبعة فى ذلك عند المفـسرين الدينيين .. وإذن : فلا بد من تمحيص تلك النصـوص تمحيصـاً تاريخياً ؛كأية نصـوص أخرى يمكن أن يلحقها الزيادة والنقص والتغيير والتبديل ، والتحريف والتشويه ، ومعنى ذلك إعطاء العقل كامل الحرية والاستقلال فى أحكامه عليها.

وكان ـ منذ قرون ـ قد أُسِّست بعض قضايا فى صورة عقائد غير قابلة للجدل ؛ فقد سلِّم بدون أية منازعة :

١ـ بأن الكتب المقدسة ـ على اختلافها ـ صحيحة.

٢ـ حماية خاصة مضروبة من الله على النصوص التى تحويها تلك الكتب وعلى جميع تفاصيلها .

تلك قضايا لها مشابه بالحق . لكن أكان يمكن أن يسلَّم أن الله ، بعد أن أنزل على الناس وحيه بما يجب أن يعملوا ، قد ترك الزمن والديدان تتلف ما كان سجلاً لإرادته ؟[١].

وفى القرن (١٧م) ـ لأول مرة ـ ثارت شكوك مكينة حول هذه المسألة . إن نصوص العهد القديم يجب أن تُدرس على نفس النمط الذى تُدرس به الأسانيد التاريخية .. ولكنها لم تصمد لذلك الامتحان. وإن مؤلفات **سبينوزا** لهى خير مثل لهذه الروح الجديدة.

يوجد فى العهد القديم كما يقول لنا سبينوزا بعض ما هو إلهى . ذاك هو بيان الشريعة الأخلاقية الواجبة الاتِّباع . والأنبياء جميعاً على ذلك

---

(١) ليس ثم شك فى أن جميع السجلات عرضة لأن يتلفها تطاول العهد وعبث الديدان ولهب النيران وكل ما هو من قبيل ذلك. تلك قوانين طبيعية خلقها الله ، وليست تتخلف آثارها إلا بمعجزة. لكنه لا يعد إلزاماً عقلياً ، أنه كلما أحرقت النار ـ مثلاً ـ كتاباً من كتب الوحى السماوى كان ذلك دليلاً على أنه ليس من عند الله ، لأن العبرة فى ذلك إنما هى بقاء ذلك الوحى محفوظاً، فى كتب أخرى غير ما أُحرق، أو فى صدور الحفظة. وإن هذا الاعتراض من الفلاسفة إنما يكون له خطره لو أن سجلات ذلك الوحى قد زالت برمتها من الوجود، وزالت معالمه من صدور حفظته.

مجمعون، وهم يرددون جميعاً : يجب أن نطيع الله بقلب خالص . أى أن نحقق بأعمالنا العدالة والإيثار . يجب كذلك (أن نحب الله من فوق كل شىء . وأن نحب جيراننا كما نحب أنفسنا).

ولنلتمس ذلك التعليم فى العهد القديم حيث يتمثل فيه .. ولننظر إليه كما لو كان قدسياً ، لأنه هو نفس تعليم العقل . بيد أنه ـ فى العهد القديم ـ علينا ألاَّ ندأب وراء شىء آخر . إنه لا يحوى شيئاً مما يُطلب غالباً ، لا علم الإلهيَّات النظرى ، ولا علم الطبيعيَّات .

ولقد تُوهِّم أن كل ما يحويه الكتاب المقدس[1] هو جميعه منزَّه عن الخطأ . لا شىء أدخل من ذلك فى باب البطلان عند **سبينوزا** . فلا التوراة المعزوَّة إلى موسى ، ولا السفر المعزوُّ إلى يوشع ، ولا سفر القضاة ، ولا سفر روت ، ولا صمويل ، ولا سفر الملوك ؛ كُتبت بأيدى المؤلفين الذين نُسبت إليهم ، ولا فى التاريخ الذى تعيِّنه النقول الدينية لهذه الكتب .

إن سفر (**التوراة**) كان ـ حسبما ورد فيه هو نفسه ـ مسطَّراً بيد موسى، ولكن بينما يتكلم عنه سفر التثنية بضمير المتكلم فإن سائر الأسفار تتكلم عنه بضمير الغائب ؛ وفى هذا تباين ظاهر .

وأيضا يُشاهَد أن سفر التثنية يحوى قصة موسى ورثاءه ، وهذا التأكيد الموحى : (لم يأت نبىٌّ مثله من بعده).

---

(١) العهد القديم بجميع أسفاره.

وفوق ذلك نرى التوراة قد عيَّنت أماكن بأسماء لم توضع لها إلا بعد أزمان متطاولة .

وإن القصص لتمتد فى هذا السِّفْر ـ بدون انقطاع ـ حتى إلى ما بعد وفاة من ادُّعى أنه مخرجه [1].

وإن هناك لأسباباً مشابهة تثير كذلك شكاً حول صحة أغلب كتب العهد القديم . إنها جميعاً تشبه أن تكون قد أُخرجت متأخرة جداً عن الوقائع التى ترويها ، وبأسلوب مؤلِّف واحد . وإن **سبينوزا** ليوحى إلينا باسمه : إنه ـ على ما يعتقد ـ (**هيراس**).

ولقد ادُّعى أن جميع نصوص العهد القديم كانت بيِّنة لا لبس فيها ، وإنها ـ فيما بينها ـ على انسجام . وتلك دعوى باطلة :

إن كثيراً منها لعلى تناقض فيما بينها .. وكثير تافه المعانى .

---

(١) يرى أولئك النقاد فى هذا كله أدلة تؤكد شكوكهم فى أن تكون نسبة تلك الأسفار إلى موسى عليه السلام صحيحة. وإذن: فلابد أن تكون تلك الأسفار قد كتبت بيد من جاءوا بعده ونسبت إليه . إذ كيف يتأتى على الخصوص أن تمتد القصص وترتبط حوادثها بأشخاص ووقائع لم توجد إلا بعد موته ثم يكون هو مخرج ذلك السفر الذى يحوى تلك القصص؟.. هذا ما يراه أولئك النقاد من جانبهم . أما نحن فلا نرى رغم وجاهة اعتراضهم أن نوافق على ما قالوه دون تحفظ . إن التوراة بشهادة القرآن الكريم كتاب سماوى معترف به فلو قلنا مع النقاد بوضعه بعد موسى عليه السلام لوقعنا فى إشكال خطير ولأهدرنا أصلاً من أصول الأديان. لكن ورد ـ أيضاً ـ بالنصوص القرآنية ما يفيد تحريف التوراة وتبديلها . فإذا صح ما أخذه النقاد على التوراة الموجودة الآن فيجب أن ينصبّ على الصورة المحرفة المشوهة أو ـ بعبارة أخرى ـ على ما أضيف إلى الأصل من تحريف وتشويه.

ومع كل ذلك ، فاللسان العبرى لسان فيه كثير من اللبس ، وحروفه يختلف بعضها عن بعض ، وحروف العطف والظروف لها معانٍ متعددة . أما الأفعال المضارعة فليس لها الأزمان المستعملة فى اللغات الأخرى .. كما أن اللغة العبرية خالية من الحركات ، خالية من الترقيم ، أما المعنى فغامض دائماً ، ودائماً عسير التحديد .

ثم كيف ـ ونحن نجهل كل شىء عن كتبة التوراة ـ يمكن أن نعرف بأى روح كانوا يكتبون ؟..

إننا عندما نقرأ (**أرسطو**) أو (**أوفيد**) فإننا نجد أنفسنا ـ فى التوِّ واللحظة ـ واقفين على مقاصدهما ..

نحن نعرف أن أحدهما كان يلهو بقصص من تصوراته ، والآخر بأساطير طريفة لها أحياناً مرامٍ سياسية .

لكن أية فكرة نأخذ عن الأقاصيص التى نجدها فى العهد القديم؟ عن قصة شمشون « الذى ـ وحيداً وبدون جيش ـ يقتل ألوفاً من الرجال»[1]

---

(١) ليس يخالج العقل شك فى أن تلك القصة تحوى من المبالغة شيئاً كثيراً . ومن يرجع بطرفه إلى سير الرسول ﷺ وأصحابه يجد صحائفها لا تشوبها شائبة من مثل تلك المبالغات، لم يكن هناك إلا شجعان كما جرت العادةبأن يكون الشجعان فى نظر العقل. والقرآن الكريم لم يطلب إليهم فى أمر ما أن يكونوا أكثر من شجعان. وأقصى ما كُلِّفوا به من ذلك أن تثبت كل جماعة مقاتلة أمام مثلى عددها. كعشرة أمام عشرين ومائة أمام مائتين. والطريف فى قصة شمشون هذا أنه لم يكن من المؤيدين من قِبَل السماء حتى يقال إن الملائكة تناصره. إنه لم يكن سوى جبار من الجبابرة الشعبيين حيكت حول حياته قصص الغرام السوقى الممجوج الذى يتجلى فى ثوب أحط ما يُسمع من الأساطير=

.. وعن قضية « إيليا الذى رُفع إلى السماء على عربة من نار»[1]؟.. أيجب أن نرى فى ذلك قصصاً ذات دعاوى تاريخية ؟.. أيجب أن نرى فيها شيئاً آخر ؟.. أساطير ؟.. كذباً للعظة ؟.. ذلك مردُّه إلى معرفة الروح التى كانت مسيطرة على « الكُتَّاب » الذين ألَّفوا تلك «الصحائف». وتلك الروح ، من ذا الذى يعرفها ؟

ومع ذلك فأية ثقة يستحقها كلام الأنبياء ؟ إنهم ليسوا علماء ، إنهم فقط قوم وُهِبُوا خيالاً حاداً ومَلَكَة عجيبة يستشعرون بها ـ أكثر من سواهم ـ شريعة الأخلاق وما لها من تقدير . لنصدِّقهم عندما يقولون كيف يجب

= ومن هنا يحق لنا أن نفخر الفخر المشروع بأن تعاليم الإسلام السامية لم تزاحم على الأرض ديناً يستحق البقاء وإنما جاءت فى إبان مسيس الحاجة إليها . وإذا كان عندنا ما نأسف له أحياناً من تسرب كثير من تلك الأساطير المسماة عند المحققين بالإسرائيليات دُسَّت فى شتى نواحى ثقافتنا الدينية فإن من فضل الله علينا أن كتاب الله الذى أُنزل على نبينا ﷺ سيبقى على الخلود حصنًا يناجى العقول السليمة بأبهى ما تزدان به النفس الإنسانية من عقائد ومعارف يضاف إليه كتب السنة المنقاة من الدس والوضع الخبيث بفضل رجال الإسلام المخلصين.

(١) من يرجع إلى الأساطير الإغريقية أيام هوميروس وبعض قرون بعده يجد شبهاً واضحاً بينها وبين هذه الأساطير الإسرائيلية التى كانت على التقريب معاصرة لها . وفى هذا ما قد يرجّح أحد أمرين : فإما أن تكون تلك الأساطير قد تنوقلت بين ذينك العالمين. وإما أن يكون نتيجة أفق ذلك العصر فى معارفه وتصوراته بحيث تنشأ عنه تلك المتشابهات من الأساطير التى تدل على طفولة العقل الإنسانى إذ ذاك ولم يتورع كتبة العهد القديم أن يضيفوا منها إلى جانب الوحى. ولماذا الغرابة ؟ والكذب للعظة ما زالت تعانيه كثير من المؤلفات الدينية حتى اليوم ..إما بحسن نية ، وإما لحاجات فى نفوس أصحابها لايعلمها إلا الله. ومن يقرأ كتاب بدائع الزهور المنسوب إلى السيوطى يجد العجب العجاب. ولعل من يفتش يجد أعجب منه.

أن ينظم قانون الحياة . أما حينما يقولون لنا إن العالم قد خُلق فى ستة أيام أو أن يوشع قد أوقف الشمس فيجب أن نحتفظ برأينا [1].

أما عن الطقوس العبرية ، فيجب أن لا نعزو إليها قيمة خاصة . **إن الشعب العبرانى ليس ـ البتّة ـ (شعب الله المختار)**.إنه ليس له مزية ، فى ذكاء ، ولا فى أخلاق .. وإنه ليمكن أن يمارس المرء شعائرهم دون أن

---

(١) يفرق الفلاسفة بين الأنبياء والعلماء بأن الأنبياء مهمتهم مجرد الدعوة إلى السلوك الخيِّر وتشريع قوانين لهذا السلوك من إملاء فطرتهم. أما العلم وهو استنباط الحقائق الكونية ، بعد أن كانت مجهولة، بطريق العقل والمنطق، ووضع القوانين لها وبيان التطبيقات عليها، فذلك شأن العلماء وحدهم. ليس هذا رأى سبينوزا وحده ، ولا رأيًا خاصًا له ولأشباهه من مفكرى عصر النهضة الذين فُتنوا بنهضتهم العقلية المشبوبة بنار الحقد على رجال المسيحية ، إنه رأى سبق القول به لبعض فلاسفة العصر الإسلامى وهم إخوان الصفا منذ عشرة قرون على التقريب. فقد كانوا يفرقون بين الأنبياء والفلاسفة بأن تعاليم الأنبياء تقليدية وتعاليم الفلاسفة نظرية ، وبفروق أخرى ليس هذا محلها .. ونحن من جانبنا نؤكد أن هذا العلم الذى يفخر به الفلاسفة على الأنبياء لم يكن يوماً من رسالة النبوة ولا موضع عنايتها . إن واجب الرسالات العليا لم يكن مادياً صرفاً كما هى وجهة العلوم المادية كعلم الطبيعة والكيمياء والهيئة وما إليها . إن واجب الرسالات العليا كان أهم من ذلك بكثير وأشمل. كان جهاداً فى رسم القوانين السامية للسلوك الإنسانى الخيِّر الذى لولاه لعقمت العلوم وانطمست القلوب وعم الخراب والدمار. وكفى برسالتهم أنها تمسك بمبدأ كل شىء ونهايته ، ترسم لكل علم وكل فن كيف يجب أن يبدأ وأين يجب أن ينتهى. وكل بداية لا تخضع لتوجيهها مروق وضلال وكل نهاية لا تقف عند حدودها لا تعدو انزلاقاً فى طريق المهالك .. وبعد هذا ألا يكون عجيباً أن تثق الإنسانية بكلام العلماء ولا تثق بكلام الأنبياء ؟ .. وأما شك «سبينوزا» ومن تابعوه فى أخبار الرسالات عن الأمور الغيبية كخلق الأرض فى ستة أيام ونحوه فالحق أنه لا أدلة عقلية يمكن أن تقنع الفلاسفة بهذا. غير أنه لما كان ذلك من عالم ما فوق الطبيعة كان الفيصل فيه من هم أسمى طبيعةً من جميع الناس وهم الأنبياء . ذلك عالمهم وهم به أوصل وبه أعلم . ومتى قالوا فقد وجب الإيمان بما قالوا .

يصير ـ بذلك ـ أشرف أو أفضل . وإنه ليمكن أن يكون المرء شريفاً طيباً دون أن يمارسها . إن تلك القواعد لتلك الطقوس لم يكن لها من غاية إلا أن تأخذ العبرانيين بالنظام الذى كانوا بحاجة إليه .

أما عن المعجزات فإن (سبينوزا) لينكرها بصراحة : إن كل ما يظهر فى الطبيعة إنما يظهر بضرورة لا تتخلَّف . عندما تتهيأ أسباب معينة تظهر النتائج التى تترتب عادة على تلك الأسباب . وإن بعض الناس إذا ما اعتقدوا أنهم رأوا خوارق فليس ذلك إلا لأنهم يجهلون الأسباب الحقيقية لتلك الظواهر التى يشاهدونها [١].

ويضيف(سبينوزا) : إن الأفكار الفلسفية التى تُستخلص من العهد القديم متضاربة .

والله لم يتخذ لنفسه صفة المشرِّع . إنه لم يفرض على بنى الإنسان تكاليف لتظهر إرادته وإنه لا يراقبهم لكى يعاقب هؤلاء أو يثيب أولئك . إنه لا يفعل إلا ما توجبه ضرورة طبيعته [٢].

---

(١) يريد «سبينوزا» رد المعجزات إلى الطبيعة باعتبار أن لكل منها سبباً طبيعياً نشأت عنه والناس به جاهلون .. وأنه لو أحيا عيسى عليه السلام أمامه ميتاً مائة مرة يموت فى كل منها ويحيا لزعم أن سر ذلك أمر طبيعى أيضاً وغاية الأمر أن لا أحد يدركه . ومثل هذا الزعم إن صحّ عنده فلن يصحّ فى عقل سليم.

(٢) هذا ـ على التقريب ـ يكاد يكون إجماعاً من الفلاسفة المؤلهين . إنهم لا ينكرون الله إنكاراً تاماً كالفلاسفة الماديين . ولأن الضرورة العقلية تلزم عقولهم الاعتراف بالعلة الأولى التى نشأ عنها هذا العالم ؛ فإنهم يجدون أنفسهم ملزمين بالتسليم بما تفرضه =

وإنه لجدٌّ مؤكَّد أن أيَّ امرئ يدرك طبيعة الله (تعالى) فإنه سيجد ـ فى هذه المعرفة ـ ما به ينظم حياته ويصيب السلام الروحى [1] ولكن هذا مردُّه إلى سبب آخر جدٍّ مختلف عما توحى الكنيسة به [2] .

إن مثل تلك الملاحظات لَتبدو جارحة للمبتدئين المسيحيين واليهود

= الضرورة العقلية. فأما الذين كانوا منهم يحيون فى عهود وثنية فإنهم لم يصفوا هذه العلة بما هى أهل له من صفات الربوبية.. إنها عندهم «العلة الأولى» وكفى. وأما الذين عاشوا منهم فى بيئات دينية ذات أصل سماوى وتعاليم دينية منظمة فقد سايروا الوسط الذى يعيشون فيه وقالوا بالألوهية .. غير أنهم مع ذلك قاربوا بين هذه الألوهية والعلة الأولى التى قال بها الفريق الأول ؛ لأن الإله ـ عندهم ـ له طبيعة عنها تصدر الأشياء بالضرورة دائماً وعلى وجه لا يتغير ولا يتخلف . لا نقض ولا إبرام ولا مفاضلة بين أمرين ولا اختيار أحدهما على الآخر . أما نحن فندعوهم إلى ضرورة عقلية أخرى مكملة للضرورة السابقة . أليس العالم مملوءاً بما لا يحصى من الممكنات المشاهدة التغير والتردد بين الوجود والعدم ؟ .. أىّ دليل لهم ـ إذن ـ على أن هذا صادر عن محض الضرورة ؟ مع أن الأقرب إلى العقل والتصور أن يكون عن إرادة كاملة ومشيئة حرة مصداقها قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ (٦٨)﴾ [القصص:٦٨] .

(١) سر هذا فى مذهب (سبينوزا) أن الإنسان متى آمن بهذا فإنه لا يأسى على هالك ، ولا يجزع لمصاب لأن كل صغيرة وكبيرة فى الكون ناشئة عن الطبيعة الإلهية بقضاء لا مردَّ له.

(٢) يعنى أن السلام الروحى هنا عند سبينوزا ناشئ عن عقيدة المرء فى القضاء والقدر الذى يصدر عن الإله ؛ كصدور المعلول عن علته دون أن يعتقد المرء أن وراءه إلهاً مشرِّعاً محاسباً مراقباً يتهدده بالعقاب ويغريه بالثواب ويريد هذا ولا يريد ذاك ويؤْثر هذا على ذاك، وسبينوزا هنا ومعه كثيرون من الفلاسفة يرون فى نظريتهم سبيلاً للسعادة أوثق مما جاء فى التعاليم (اليهودية ـ المسيحية) المملوءة بالتشاريع والتكاليف والتهديد بالوعيد للعصاة مما هو من عوامل الشقاء أكثر منه من عوامل السعادة. وقد تقدَّم هذا الرأى للفيلسوف الإغريقى (أبيقور) مصحوباً بالرد عليه.

المسحورين بالمأثور .. إنهم يعدُّون (سبينوزا) زنديقاً وملحداً .. ولكن تلك الآراء لم تكن فى شق طريقها إلى النفوس بالتى تفتر أو تقتصر .

إنها لَتظهرُ من جديد وتشتدُّ حدَّتها عند **أتباع بايل ، وأتباع فولتير ، وأتباع ديدرو ، وأتباع دولباخ ، والأنسيكلوبيديين الزنادقة.**

وإنها خسارة كبيرة للفلسفة المدرسية أن تؤسِّس قواعد الأخلاق وأن يُنادَى بها [1].

إن المبدأ (**اليهودى ـ المسيحى**) لن يكون له معنى ما لم يسلِّم بصحة بعض الكتب وبعض الأدلة.لكن هل هذه الكتب وهذه الأدلة لها ما يُعزى إليها من قيمة ؟

لقد أصبحت هذه المسألة موضع جدل مذ ذاك[2] فصاعداً .. وبذا بدأ الشك يعمل عمله .

السبب الثانى « تناقض الفلسفة المشيّدة على الدين » :

إنه لم يكن المبدأ (**اليهودى ـ المسيحى**) ـ فحسب ـ هو الذى تعرَّض ، فى ذلك العهد ، لحملة قاسية . بل إن البناء الذى شيَّدته الفلسفة ، فى الوقت المناسب ، على قواعد الدين قد بدأ ـ بتمامه ـ يتصدع .

---

(١) الفلسفة المدرسية هى فلسفة الكنيسة فى العصور الوسيطة وهى ترى أن من الخسارة تخطِّى النصوص الدينية الأخلاقية الموحى بها من عند الله. وتأسيس قواعد للأخلاق من عمل العقل البشرى.

(٢) مذ ذاك : أى: مذ بدأ النقاد فى (القرن ١٧ م) يهاجمون ـ من طريق العقل ـ نصوص العهد القديم والعهد الجديد لبيان ما فيهما من متناقضات يأباها العقل .

إن قاعدة البناء هى الجزم بإله خالق والإيمان بعنايته. وهذا الإله ـ كما يقال ـ لا نهائى الذكاء ، لا نهائى الرحمة ، لا نهائى القدرة . إله يفرض على الناس سلوكاً خاصاً. إنه سيحكم عليهم تبعاً لأهليتهم وعدم أهليتهم للثواب .

أهذه قواعد يمليها العقل ؟ ..

أهذه قواعد يمكن أن يدافع العقل عنها ؟..

ـ إن أحد أتباع (**سبينوزا**) يضع ذلك موضع الشك.. وإن جميع «الأنسيكلوبيديين» يضربون معه على هذا الوتر . إننا لنجد أنفسنا جدّ مرغمين على أن نؤكد أن الشر يقيم فى هذا العالم :

ـ شر ميتافيزيقى[1] كالنقص الخِلْقىّ فى الخليقة.

ـ وشر فيزيقى[2] يشمل الآلام على جميع ضروبها .

ـ وشر أدبى [3] هو الخطيئة والإجرام.

وهذا الشر الذى فى العالم ليس وجوده فيه على جهة الندرة والشذوذ

---

(١) ميتافيزيقى : لأنه صادر عن قوة (ما فوق الطبيعة) فمن ولد منقوص الخلق فى عقله أو جسمه فإن الشر الذى أصابه ليس بيد أحد ولا بسبب طبيعى . نسبة إلى (الميتافيزيقا).. أى: ما فوق الطبيعة.

(٢) فيزيقى : أى: طبيعى ، نسبة إلى (الفيزيقا).. أى : عالم الطبيعة ، كآلام القتل والمرض والضرب والجروح والإهانات وسواها.

(٣) شر أدبى : أى: سببه عدم مراعاة قوانين السلوك . وهو (الشر الأخلاقى) وتعاليم الأخلاق لا تسمِّى ـ سواه ـ شراً ؛ لأن النقص فى الخِلْقة ومختلف الآلام قد تصيب خير الناس وتتخطى أشرارهم.

.. إنه موفور .. إنه منشور فى كل مكان حيث الضمير لا يعدو برعماً [1] قد طعم على دوحة الحياة .

ـ أليست الأرض أشبه شىء بمقبرة فسيحة الأرجاء ؟

ـ أليست الأنواع النباتية من الحيوان تعيش على حساب النبات ؟

أكانت الأنواع المفترسة تستطيع البقاء لولا عدوانها المستمر على الأنواع النباتية من الحيوان ، وعلى ما تستضعفه من أفراد نوعها المفترس ؟

ـ كيف يمكن أن يُوفَّق بين أعمال ـ كهذه ـ وبين العناية الإلهية المفروضة ؟[2]..

إن الفلسفة الإلهية الدينية تتخلص من هذه الورطة باعتمادها على مسألة (**الخطيئة الأصلية**). إن الإنسان قد بُرِئَ طيِّباً وفى اتزان تام فى عالم خالٍ من الشرور.ولكن الإنسان قارف الخطيئة[3] ؛ ولأنه قارف الخطيئة صار معاقباً ؛ ولأنه صار معاقباً ملأ العالم بالشرور.

---

(١) ما أصغر البرعم بالنسبة إلى الشجرة . وهكذا أمر الضمير الذى هو موحى الخير فى محيط الإنسانية ، والذى هو خيط النور الوحيد فى محيطها الزاخر بالشرور. إنه فى نظر أولئك الفلاسفة لا يعدو منبت غصن صغير فى جنب دوحة هائلة . وإذن : ما قيمة مثل هذا الضمير الخيِّر وسط عالم طافح بالشرور ؟.

(٢) يبدو من هذا أن الفلاسفة يريدون من العناية الإلهية عناية توافق أهواءهم لا على ما أراد صاحبها سبحانه . وإذا كانت العناية معناها أن لا يعدو قوى على ضعيف وأن لا يمس الألم كائناً حياً فأى نوع من العوالم يكون ذلك العالم ؟.. أين الألم الذى لولاه لما عُرف للذة طعم ؟ والظلم الذى لولاه لما كان للعدل قيمة ؟ والواقع أن الخير ما كان يكون خيراً لولا الشر الذى يقابله .

(٣) أى: خطيئة آدم بتخطيه أمر ربه ، وأكله من الشجرة. والتعاليم (اليهودية ـ المسيحية) =

ـ لكن هل يمكن للعقل أن يقتنع بمثل تلك التأكيدات ؟

ما الرأى ـ أولاً ـ فى ألم الحيوان ؟.. أنا مثلاً أضرب كلباً ، إنه يعوى من الألم . وإذا كان يتألم فهل يجب أن يقال إنه انحدر من صلب أبيه الأول الذى أكل هو أيضاً من طعام محرَّم ؟.. أم هل يجب أن يُعَدَّ مُعاقَباً من أجل غلطة آدم مع أنه لم يكن للكلاب فى هذا شأن يذكر ، وهذا ظلم بالغ حدَّ القسوة ؟.. أيمكن أن يُسلَّم بأنه لا يتألم وأنه ـ على منهج ديكارت وخلافاً للمعقول ـ إنما يصدر عن مجرد عمل ميكانيكى ؟

ـ ومن ناحية أخرى : ماذا يقال عن آلام الإنسانية ؟

يقول بسكال : « لا شىء يزحم العقل الإنسانى بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية . وإنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يُعاقَب إنسان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة[1] ».

وكم يبدو غريباً أن يُحكم على طفل بالألم من أجل خطيئة لم يكن هو نفسه قد ارتكبها ، ولم يكن قد غمس فيها إصبعاً بأية وسيلة ، بل لم يعرف عنها شيئاً إلا من التاريخ ، وبعد زمن من حياته .

= تقيم لها ضجة وتجعل منها عقيدة أصلية تُبنى عليها فروع مهمة. أما عندنا فى الإسلام فلم تكن أكثر من زلة تذكر للعبرة والعظة. وعبارة المسيحية عنها هنا متناقضة فى نفسها . إذ كيف يكون قدْ برئ طيباً وفى اتزان تام وفى عالم خال من الشرور ثم هو فى نفس الحين يقارف الخطيئة؟ إنها ـ كما قلنا ـ ليست أكثر من زلة مغفورة من رب رحيم.

(١) هذا تمثيل معناه طول المدة.

وإنه لَحَقٌّ أن تعليل الشر بالخطيئة الأصلية ـ لمن يتمسَّك بمنطقه ـ إنما هو من الفروض المتعذرة .

وإنها لنهايةٌ لا يمكن تحاشيها ، كلما فكرنا أكثر فى طبيعة هذه الخطيئة نفسها :

لكى يكون المرء مسئولاً ، ومُعاقَباً بالعدل ، يجب أن يكون المرء حراً فى مقاصده . وبدون ذلك فليس ثَمَّ مكان للأهليَّة بالفضيلة ، ولا للسقوط بالإثم .

ـ ولكن كيف يمكن التوفيق بين الحرية الإنسانية والعلم الإلهى الأبدىّ المحيط بما كان وما سيكون . ولنفرض أن آدم كان حراً فى أن يخطئ أو لا يخطئ . أكان يمكن أن يعلم الله أنه سوف يخطئ إذا كان لا يمكن أن يعلم ذلك من قبل ؟(١)..

ـ أكان يمكن أن يعلم الله (قبل أن يخلق هذا العالم) ما سوف يكون عليه هذا العالم الذى كان يتهيأ لتحقيقه ؟ (٢).

---

(١) أى: بسبب كونه حر الإرادة وكون العمل مردداً بين الوقوع وعدمه أى: فالعلم ذو وجه واحد بحالة واحدة ، وأما الإرادة التى توقع المعلوم فإنها ذات وجهين تستطيع الإيقاع وتستطيع عدمه ، وفى هذا تناقض. ولسنا ندرى لماذا يحتم أولئك الفلاسفة تنافى العلم الأزلى وحرية العبد؟ إن تلك الحرية لا تعدو استعداداً وصلاحية للعمل ولعدمه. فلماذا لا يتعلق علم الله بأن العبد سيعدل عن عمل كذا إلى سواه فى حين أنه كان فى الأصل وبدون مراعاة هذا التعلق يمكنه أن يختار ما عدل عنه ويعدل عما اختاره ؟.

(٢) وردُّنا على هذا أن عدم التحقق بالفعل لا ينافى العلم بأنه سيتحقق على مقتضى العلم . إن العلم قديم ، كما أن الإرادة قديمة . ومنذ كانت الإرادة السابقة بإبرازه ـ على حسب المشيئة ـ كان العلم متعلقاً بذلك. فلماذا لا يعلمه ويعلم ما سيكون عليه قبل أن يكون؟.

ثم لنفرض ـ على العكس ـ أن الله كان بحال يعلم فيها بخطيئة آدم في المستقبل ، إنه حينئذ كان يعلم أنه مُعطيه الطبيعة التى فرضها عليه[1]، فإن آدم كان ـ إذن ـ مُجْبَراً على الخطيئة .

وإذن: فلماذا أعطاه الطبيعة التى جعلت من «المحتوم» وقوع الخطيئة وجميع الشرور التى تتبعها ؟

وكيف يُعذر إله كان يستطيع أن لا يخلق أىَّ عالم ولكنه خَلَقَ واحداً، في حين أنه يعلم أن ذلك العالم سوف يكون مسرحاً لكل الآثام والآلام ، خيار الناس فيه نزرٌ ، وشرارهم أكثرية ساحقة ؟

ويجب أن لا يقال إن الله كان غير قادر على الكفِّ عن خَلْقه ، أو على إيجاد عالم أفضل منه ؛ لأن الله تام القدرة .

كما يجب أن لا يقال إن الأمور تكون أقل كمالاً ، لو أنه امتنع عن خَلْق العالم ، لأنه ـ هو بذاته ـ الكمال المطلق ، وبوجوده كان الكمال المطلق محقَّق الوجود[2].

ولا يقال إنه (تعالى) إنما صنع ما صنع ليختبر خلائقه؛ لأنه (تعالى)

---

(١) هذا إذا سلَّمنا أنه فرض عليه « طبيعة خاصة » لا أثر فيها لاختيار أصلاً .. أما إذا كانت الطبيعة التى حباه الله بها حرة فى أن تعمل وأن لا تعمل فإن تعلُّق علم الله بها لن يؤدى إلى هذا الجبر .

(٢) كل هذا كان يتضح لو أننا استطعنا أن نكشف حقائق عالم الإرادة ونمحّص الشرور والخيرات ونعرف أيها خير للعالم وأيها شر . أو بعبارة أخرى لو أن علمنا وإدراكنا كان من النفاذ بحيث يعلو على علم صانع العالم ـ جَلَّ وعَلاَ عما يقول المغرورون.

ـ وهو بكل شيء محيط ـ كان يعلم من قبل ما سوف تعمل خليقته فى كل لمحة من لمحات حياتها ، فلا حاجة به إلى اختبار[1].

وفى تلك المشكلات راح فلاسفة الإلهيَّات فى القرن ١٧م يتخبطون فى لجج أهوائهم ..

وكلما راحوا يحاولون التملص من تلك المشاكل لجأوا إلى التعسفات وكلما لجأوا إلى التعسفات كَفَّرَ بعضهم بعضاً.

ثم آل الأمر إلى أن يساهموا فى هدم نفس الحجج الدينية التى يبدو أن الأخلاق الدينية تستند إليها .

ولقد أمعنوا فى هدمها إمعاناً ؛ جعل بعض العقول لم تقتنع بأن تضع موضع الشك قواعد الأخلاق الدينية .. لذلك أُعلن بطلانها باسم «العقل» نفسه الذى تنتسب إليه .

---

(١) أما مسألة الاختبار هذه فقد وردت أيضاً فى النصوص الدينية الإسلامية وهى التى يعبر عنها كثيراً فى القرآن الكريم بالابتلاء. والحق أنها لو أُخذت على ظاهرها لكان اعتراض الفلاسفة وارداً عليها . وإذن : فليس المراد بالاختبار والابتلاء علم ما لم يكن معلوماً لله لاستحالة الجهل عليه تعالى . وعلى هذا يتعين أن يكون المراد بالابتلاء والامتحان أخذ العبد بقدر من تذوق الخطوب ؛ ليتم له بذلك نوع من المرانة على تحملها ؛ فإذا ما عاناها وهو معرَّض لها دائماً فى هذه الحياة عاناها بجلد وصبر واتزان وثبات على الإيمان بالله .. فتكون النتيجة النهائية لمن يصبر فوزاً ، ولمن يجزع هزيمة وهلاكاً ، وفى هذا ما يشبه الامتحان تماماً ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة].. أما ما يعمد إليه بعض المفسرين بأن المراد بالامتحان إظهار أمر الممتحن أمام الخلائق لتشهد عليه ، فيُعترض عليه أيضاً بأن الله يكون ـ إذن ـ محتاجاً إلى من يشهد له أو يبرر عدالته ، وهو غنىٌّ سبحانه عن كل هذا.

ولنتأمل ـ فى هذا المقام أولاً ـ الأحكام التى يصدرها (**سبينوزا**) على فكرة العناية الإلهية .

ثم من بعد ذلك ، تلك التى يصدرها أتباع (**لا مترى**) وأتباع (**ديدرو**) وشيعة (**دولباخ**) .

لقد احتفظ (**سبينوزا**) باسم الجلالة (**الله**) كما هو معروف .

بيد أن إله(**سبينوزا**) ليس بينه وبين (**الله**) ـ بلسان المسيحية الدينى ـ من صلة إلا فى مجرد الاسم .. إن هذا « **الإله** » لا يتبع ـ فى الحقيقة ـ فى أعماله ، أية غاية أخلاقية أو شعورية . إنه لا يعمل شيئاً من أجل غاية . إنه يصدر فى كل ما يصدر عنه بضرورة طبيعته ، كما يحوى المثلث ما له من خواص. إنه الطبيعة بذاتها والكون بذاته .. أما أن يُفرض عكس ذلك فإن ذلك ـ كما يقول (**سبينوزا**) ـ يسلب الكمالات الإلهية ؛ لأنه إذا كان الله يصدر من أجل غاية ، فإن معنى ذلك أن يشتهى ـ ضرورةً ـ ما هو بحاجة إليه . إنه لا يكون ـ حينئذ ـ لا نهائياً ولا كاملاً ، وإنها لعقيدة مضحكة ، بكل معنى الكلمة [1].

وبعض « الأنسيكلوبيديين » يذهبون فى الإنكار إلى أبعد حد .. إنهم

(١) سبق (أرسطو) بذلك (سبينوزا) وحاول أن ينفى عن الله كل تكثُّر فى ذاته وفى صفاته وغير (أرسطو) من الفلاسفة المؤلِّهين كثيرون عُرف عنهم مثل هذا الصنيع، وكاد المعتزلة لحرصهم على وحدانية الله أن يكونوا من الذاهبين هذا المذهب . ووجهة جميع القائلين بهذا هى المبالغة فى تنزيه الله عن أن يكون له مثل صفات الحوادث ، وهذا ما يعده (سبينوزا) عقيدة مضحكة!.

يدعوننا ـ حتى ـ إلى حذف اسم (**الله**) نفسه [1]..

وفى هذا يقـول (**دولباخ**) : إن عـقـيـدة الله ـ المـأثورة ـ نسـيج من المتناقضات .. إن فكرة الله هى الضلالة المشـتركة للنوع الإنسانى . أىّ إله طيِّب ذلك الذى يحتدم غضبًا بلا انقطاع ؟ .. الإله التام القدرة وهو ـ أبـد الدهـر ـ لا يستطيع تنجيز ما يرسم من مقاصد ؟.. الإله الذى يحب النظام وهو ـ أبد الدهر ـ لا يستطيع أن يمسك بزمامه ؟ الإله العادل الذى يَرْضَى لعباده الأبرياء أن يكابدوا مظالم لا تنقطع ؟ أىّ مـوجود شامل العلم ذلك الذى يجد نفسه مضطراً إلى أن يختبر خلائقه ؟.. أىّ موجود كامل القدرة ذلك الذى لا يسـتطيع أن يفـيض على مـصنوعـاته الكمـال الذى يريد أن تكون عليه ؟ أىّ موجود متحلٍّ بكل صفة من خواص الألوهية ذلك الذى يسلك دائماً مسلك البشـر ؟.. أىّ موجود ذلك الذى يقدر على كل شىء

---

(١) ذلك ضرب من هوس فلاسفة عصر النهضة فى الغرب أغراهم به ضعف تعاليم الكنيسة وتجافيـها ـ فى كثير من مواقـفها ـ عن المنطق ، وإعراضهـا عن ضروريات العقل ، ولعل (دولباخ) لو تأمل منهج الإسلام الحق لوجده يقدم إليه تأليهاً معقولاً لا تشوبه المتناقضات كما شابت كـثيراً فكرة التأليه فى الوسط المسيحى، حيث يكون الإله مرة بشراً يمشى بين الناس ، ومرة من أقانيم ثلاثة ذات حقائق مستقلة عند العقل ، ومرة من عنصرين لاهوتى وناسوتى ، وهكذا مما أطمـع أولئك المتهوسين فى التـمادى على محـاربة الدين أين كان وكيفما كان . والآن نسأل (دولباخ) سـؤالاً ما نظن عليه جواباً : إذا كان حـال الإنسانية اليوم على مـا نرى وأكثرهم لا يعـبد الله إلا خوفـاً أو طمعـاً فكيف يكون حالهـا إذا ما حُذف اسمه تعالى كما يدعو إليه (دولباخ).. أيمكن أن يبقى هذا العالم قرناً واحداً دون أن يُقضى عليه بالحرب الشاملة ؟!.

ولا ينجح فى شىء؟.. والذى يعمل دائماً بطريقة لا تليق بمكانه؟ [١]..

وإنه لمؤكد أن هناك أشياء تفوت قُوانا .. ومع ذلك فلا شىء سوى المادة ، تلك المادة التى تُنتج ما تنتج دون غاية ودون شعور ، بل بنوع من الاختمار والتفاعل[٢].

ويجب أيضاً أن نتأمل رأى أولئك الفلاسفة أنفسهم فى مسألة القضاء والقدر . إن رأيهم هنا ليس بأقل تأكيداً منه فيما سلف. إن الناس لَيظنون أنفسهم أحراراً. وإنه ـ كما يقول (سبينوزا) ـ ليحلمون وعيونهم مفتوحة .

إن الإنسان ليس ـ البتَّة ـ دولة فى داخل الدولة. إنه ليس مركزاً للكون كما تصوِّره له سذاجته .. إنه ليس خليقة ذا امتياز خاص .. إن كل ما يحدث ليس إلا نتيجة ضرورية للطبيعة الإلهية. وكل ما يتحرك إنما يتحرك

---

(١) يريد (دولباخ) بهذا أن يظهر التناقض بين ما تدعيه تعاليم المسيحية لله من كمالات وبين ما يشاهد فى الكون من مظاهر لا يمكن أن تتفق وتلك الدعاوى الدينية ، إن الكون فى نظر (دولباخ) ملىء بالمظالم والشرور ومظاهر البغى والعدوان والفساد الخلقى ، فإذا كان الله يبغض ذلك كله وهو قادر على منعه فلماذا لا يمنعه ؟ أيليق هذا مع ما أسندته إليه تعاليم المسيحية من مكانة تجل عن الإدراك ؟ وقد قدمنا فى الرد على مثل هذا أن حكمتنا وعلمنا أقصر من أن يطاولا علمه تعالى وحكمته وأن يصادراه فى خلقه ونظامه ، ومن هنا لا يمكن موافقة (دولباخ) وأشياعه على أن ذلك منافٍ لمكانه تعالى من الحكمة والعظمة اللانهائية .

(٢) الاختمار والتفاعل ظاهرتان تجلّى عملهما ، وفاضت آثارهما فى الطبيعة والكيمياء منذ عصور، وبشكل منتظم واضح فى عصر النهضة الحديثة، وكان فى ذلك ما شجع علماء المادة والفلاسفة الماديين على إثارة كثير من الشكوك وعرض كثير من الدعاوى العريضة التى أضخمها ـ على الإطلاق ـ ادعاؤهم رجوع الكون كله إلى أصل مادى.

بحسب ما هو كائن مستصحباً سببه الاضطرارى الخاص به . كيف يمكن أن يتحقق اتجاه بحسب أمر لا يمكن أن يكون[1]. ومن المؤكد أننا مجبولون على أن ننسب لأنفسنا حرية فاعلة . وما ذاك إلا لأننا ضحايا خدعة . ولنفرض حجراً مقذوفاً فى الفضاء بيد طفل .. ولنفرض أن ذلك الحجر يحس بحركته ، وأنه يجب أن يتحرك ، وأنه يجهل اليد التى دفعته . إنه سيتخيل أنه الفاعل لحركاته . وما نحن فى كل أعمالنا سوى هذا الحجر . إنه يخيل إلينا أننا نعمل أعمالنا من تلقاء أنفسنا . هذا صحيح من بعض الوجوه .. إنه لصحيح ـ حقاً ـ أننا نعتزم العمل. إن ذلك إنما هو لأننا نحن الذين نقوم بالعمل. ولكن هل نحن الذين صنعنا أنفسنا على ما هى عليه؟

نحن نجد ـ من قبل ـ عند (**دولباخ**) النظريات التى أثمرت فيما بعد.. كل منا يعمل ما يعمل بسبب :

١ـ مؤثرات غريزية ، تفاعلها يطبع نفسه بما يفسر أعماله عندما يوجد فى الحياة .

---

(١) أى: كيف يمكن أن يكون للإنسان اتجاه حر مختار فى سلوكه؟ هذا لا يكون إلا إذا فرض حراً، وفرضه حراً أمر لا يمكن أن يكون. وكلام (سبينوزا) هنا فى الجبرية واضح لا لبس فيه ؛ إنه لم يسر فيه على طريقة الأصول الدينية كما هو صنيع الجبريين القدماء الذين تفادوا القول بحرية العبد لاصطدامها بشمول قدرته ـ تعالى ـ وإرادته ، دون أن يناقشوا موضوع الطبيعة الإنسانية نفسها كما هو صنيع (سبينوزا)، وإذا كان هو قد بنى الجبرية على أساس ميتافيزيقى أيضاً ، فإن (دولباخ) المادى العريق سيأتى له كلام فى الجبرية المادية ؛ وبذا يتحصل لنا ثلاثة اتجاهات فى مذاهب « الجبرية » : الاتجاه الدينى ـ الاتجاه الفلسفى الميتافيزيقى ـ الاتجاه المادى .

٢ـ أحوال كثيرة تحفُّه ـ حيث يوجد ـ : كالبيئة الطبيعية ، والبيئة الاجتماعية.

إن فلاناً ـ إذن ـ فاضل ؛ لأنه أُتيح له حظ طيب[١] فى حياته.. وسواه شرير لأنه ضحية حظ سيئ . إذن : لا أهلية ، ولا سقوط .. يوجد ـ فقط ـ أناس أولو خُلُقية عالية كما توجد نساء ذوات جمال ، وأناس ذوو خُلُقية سافلة كما توجد نساء قبيحات الوجوه . وليس ذنب فريق منهم بأكبر من ذنب الفريق الآخر .

ثم ما الرأى فى مسألة خلود الروح ؟

إن (**سبينوزا**) ليتمسك بأن فينا شيئاً خالداً. ولكنه ـ فقط ـ الجانب الروحى منا : العقل ، والعلم . يعنى الجانب غير الشخصى فينا [٢]. كل ما يكوِّن شخصيتنا يفنى .

إن هذا النمط من الفلسفة قد تحددت معالمه خلال القرن ١٨م. ومهما

---

(١) حظ طيب .. أى: من المؤثرات الغريزية ، ومؤثرات البيئة الطبيعية... إلخ. ومن أصاب من هذه حظاً طيباً كان ذا خلقية عالية بالضرورة لا بالاختيار، كما أن من يصيب من ذلك حظاً سيئاً فيرث عن آبائه غرائز سيئة أو يولد فى مناخ ردىء أو بيئة اجتماعية منحطة فإن أخلاقه ستكون بالضرورة أخلاقاً سيئة. وفى هذه النظرية ما يعرف بنظرية (الجمود) أى: عدم قابلية الأخلاق للتغيُّر.. وهى النظرية التى قال بها (شوبنهور) صراحة فى مذهبه الأخلاقى المشهور ، وقد سبق الجميع فى هذا المحقق الأخلاقى ابن مسكويه ، بيد أن هذا الأخير إنما يقول بها فى بعض الناس لا فى جميعهم .

(٢) غير الشخصى.. أى: الذى هو عام مشترك ، لا ينفرد به شخص دون آخر ، وليس من مشخّصات الفرد .

بدا (**فولتير**) مؤمناً بفكرة وجود الله ؛ فإنه كان ـ مع ذلك ـ يأنف[1] من أن يعتقد بخلود الروح.

أما (**دولباخ**) فيتخذ طريقة أخرى أبرز طابعاً.. إنه يرى أن الاعتقاد فى خلود الروح كان شؤماً. فقد حَمَلَ الإنسانية على أن تهمل فى إصلاح هذا العالم بناء على أنه سوف يكون هناك عالم آخر سيكون فيه كل شىء على ما يرام[2]. إنه ـ إذن ـ يلفت الإنسان عما كان يجب أن يكون شغله الشاغل.

---

(١) «يأنف» كلمة تبدو غريبة ، لأن الاعتقاد بخلود الروح إذا لم يكن مشرِّفاً جداً فإنه على الأقل لا يدعو للاشمئزاز والاستصغار. ولكن ما سر هذه الأنفة من القول بخلود الروح، عند مفكر يعترف بالألوهية ! .. سر ذلك ـ ولا شك ـ أن أولئك الفلاسفة كانوا يجدون دليل وجود الصانع دليلاً لا يمكن أن يجابه فلم يستطيعوا أن يغفلوه . أما خلود الروح فليس عندهم ضرورة عقلية ، وإنما عماده النصوص الدينية التى لم تقنعهم يوماً ما فى جدالهم رجال المسيحية، وهم يعتقدون أن أكثر تعاليمها غلو فى الاعتقاد ، لا ضرورة له ، وأن التقليد فيه لا يليق بفيلسوف.

(٢) حقًا إن (دولباخ) هنا يبدو فى جرأته فيلسوفاً لا يتقيد بأى قيد ، لكنه لا يبدو فيلسوفاً حقاً ؛ إذ يرمى بالقول متسرعاً دون تدبر ، ولنسأله أولاً ما الذى حمل الإنسانية على أن تعتقد هذا الاعتقاد الذى يعده شؤماً ؟ أكان الدافع إليه بطر الإنسانية وأشرها وجَهلها للبغى والفساد ؟.. أم كان الدافع إليه نزعة خيِّرة من التعقل والتدبر تحاول تقرير أساس خالد للعدالة التى كثيراً ما يفتقد الناس وجودها على الأرض؟.. ثم أليس فى ذلك الاعتقاد أعظم حافز على الفضائل وأبلغ واعظ يدعو إلى الاستقامة وحسن المعاملة بين الناس؟.. وماذا كان مصير العالم الذى ينتهى إليه فى هذه الحياة لو أن الإنسانية كلها أخطأها التوفيق فلم تدن بهذا المبدأ لا عن طريق الفلسفة العقلية السليمة ، ولا عن طريق الأديان ؟ .. يوم لا يؤمن امرؤ إلا بأن المبدأ والمصير هو فى هذه الدار ، وفى غمرة هذا العالم المادى: أكان يتسامح أحد لأحد فى حق وإن كان كلمة يزيد عليه بها ؟.. بل أكان يسمح أحد لأحد بأن ينال ما له من حق؟.. وأيم الله لو أن أخيار العالم فى أى زمان =

على أن ما قد قيل ـ فى هذا الموضوع ـ لا يمس المشكلة الحقيقية :

إن شيئاً واحداً سيكون مثار اهتمامنا ؛ ذلك أن نجد أنفسنا فى عالم آخر تصاحبنا فيه ذكرى ما كنا قد عملنا فى هذا العالم .. وبدون ذلك لن يكون فى حيز الإمكان عقوبة ولا مثوبة.

ـ لنفرض إنساناً يتألم ، أيمكن أن يعتقد نفسه (مُعاقَباً) إذا كان لا يتذكر ما قد كان منه من جُرْم ؟.. أو أن إنساناً يحس بسعادة ، أيمكن أن يعتقد نفسه (مثوباً) إذا كان لا يتذكر ما قدَّم من الصالحات ؟

وأيضًا ـ فى حياة أخرى ـ : هل سأكون أنا هو أنا نفسى إذا كنت لا أتذكر وقائع هذه الحياة الحاضرة ؟ .. كيف أعرف نفسى هناك إذا كنت لا أذكر شيئاً ؟.. وكيف ـ بغير ذاكرة ـ أستطيع أن أعرف أولئك الذين كنت عرفتهم ، أو الذين كنت أحببتهم ؟

إن المسألة التى تهم الأخلاق ليست هى الخلود أىَّ خلود كان . إنها ـ على الخصوص ـ خلود الذكرى.. لكن ما رأى التجربة ؟

إن الذاكرة مرتبطة أوثق ارتباط بحياة البدن .. إنها لتضعف عند الشيخوخة . وإنها لتختفى فى بعض أحوال المرض..

= ومكان يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وبدا لهم أن ليس وراء هذه الدار من حياة لحاول كل منهم أن يفنى جميع من فى الأرض ليفوز هو بالبقاء وحده وماذا ـ إذن ـ سيجعله يبقى على معالم الخير فى نفسه ويبقى لابساً رداء الفضيلة ما دامت هذه الفضيلة لن تكون له إلا غبناً لا عوض له ، وخسارة لا ربح وراءها ؟.

أيجب أن يُعتقد أنها تبقى بعد انحلال البدن؟..

أيجب أن يُعتقد أن الموت يردُّها على أولئك الذين كانوا قد فقدوها من قبل ؟ (١)..

إن هذه الشكوك نفسها لتتدفق حول مسألة الضمير الأخلاقى . أهو ـ حقاً، فى داخلنا ـ صوت الله ؟..

إنه منذ نهاية القرن (١٧م) أخذ (**لوك**) متبعاً طريق (**مونتينى**) يسجل ـ بفضول ـ ضروب الاختلاف بين الضمائر حسبما كان يكشف عن غوامضها قصص السائحين وتقارير البعوث التبشيرية .

---

(١) خلاصة كلام الفلاسفة فى هذا الإيراد الذى يعتبرونه مشكلة لا حل لها ، هى أنهم يرون أن مسألة الخلود فى نفسها غير ممكنة لعدة أمور بديهية :

أولاً: أن هذا الخلود لا قيمة له ما لم يستصحب (الذكرى) .. أى: تذكر المرء حياته الأولى وملابساتها وشخصيته التى كان يمارس بها تلك الحياة الأولى . وأن يكون على يقين من أن شخصه فى الأخرى هو نفس شخصه فى الحياة الأولى.

ثانياً : أن يشعر بأن العذاب الذى يحل به فى الآخرة هو من أجل ذنوبه التى اقترفها فى الدنيا، وأن ثوابه الذى ينعم به فيها هو ـ أيضاً ـ من أجل أعماله الخيِّرة فى الدنيا . وبدون ذلك الشعور لن يكون لذلك العذاب ولا لذلك النعيم معنى.

ثالثاً: يجزم العقل بالتجربة أن هذه (الذكرى) غير ممكنة ، لأن التذكر رهين بسلامة الذاكرة التى هى مرهونة بسلامة البنية الطبيعية . فإذا ما أصيبت البنية الطبيعية ـ ولو بصدمة شديدة ـ فإن الذاكرة تزول.

رابعاً: إذا كانت هذه الذاكرة تزول ـ حتى بسبب صدمة ـ فكيف يمكن بقاؤها بعد الموت الذى هو انحلال تام للأعضاء ؟

هذا هو إيضاح كلام الفلاسفة، وجوابه أن ذلك مسلَّم لو فرض أن ليس هناك إلهاً قادراً على أن يجمع ما تفرَّق من شمل البدن الميت ، وأن يعيد إليه (الذكرى) . وهو ما يغفل عنه الفلاسفة دائماً ، ولا يغفل عنه العارفون.

وفى القرن (١٨م) أخذ الناس يقرأون ـ بدهشة ـ رسائل سياحات (**كوك**) و (**بوجنفيل**): إن ما يعتبره المتحضِّرون الغربيُّون خيراً أو شراً ليس هو كذلك عند «البدائيين» الأمريكيين وسكان «الأوقيانوسية» الذين يرون مخلصين غير ما يرى متحضِّرو الغرب .

ولنقرأ من مؤلفات (**ديدرو**) سفره المعروف (**تكملة رحلة بوجنفيل**) : إذا كان الله يوحى إلى الناس ما هو خير وما هو شر ، عن طريق صوت الضمير ؛ فلماذا يوحى إلى بعض الناس بأن نوعاً من السلوك أمر واجب ، وإلى آخرين بأنه من قبيل المباح ، وإلى سواهم بأنه إثم ؟

● إن رجلاً ـ ممن يرون «تعدُّد الزوجات» ـ لا يحمرُّ خجلاً من تحقيق ذلك التعدُّد.

● إن الزنجية لا تخجل من عريها.

● إن رجلاً من سكان جزر(**تايتى**) لا يستشعر من الخجل شيئاً عندما يأتى العمل الجنسى أمام الجماعة التى ترشده دينياً إلى ما ينبغى أن يعمل .

حقاً ، إن المبادئ الميتافيزيقية التى عليها تقوم الأخلاق الإلهية المأثورة لم يكن شىء أبعد منها عن الطابع العقلى .

إن فلاسفة القرن (١٨م) لم يذهبوا مع ذلك إلى حد إعلان بطلانها؛ فكثيرون من بينهم قد وقفوا موقفاً أكثر اعتدالاً . على أن مذهبهم فى ذلك

ـ رغم اعتـدالهم ـ ليس أقل تهديمًا بالنسـبة للأخلاق الإلهـية (**اليهودية ـ المسيحية**) [1] :

إن فلسفة ميتافيزيقية إلهية كهذه تدَّعى لنفسها أساساً من العقل ، كما أن الفلسفة الميتافيزيقية الإلحادية لا تدَّعى غير ذلك .

ـ لكن هل الفـلاسـفـة الدينيـون ، وأضـدادهم الملاحـدة ، قـد تروَّوا جـيداً؟..

إنهم يعتقدون جميـعاً لأنفسهم ـ لا فرق بين هؤلاء وأولئك ـ أنهم على مكانة تمكِّنهم من البرهنة على أن مبادئـهم لـها قيمتها التـى لا جـدال فيها.. أليس ذلك ـ من الطرفين ـ سذاجة ظاهرة .. إنه لا المذهب التأليهى، ولا المذهب الإلحادى بقابل للبرهنة.

---

(١) توضيح هذا أن بعض فلاسفة القرن ١٨م لم يصرحوا ببطلان المبادئ اليهودية ـ المسيحية فى الأخلاق، بل أوصوا بالإبقاء عليـها لفائدتها فى مجرى الحيـاة العامة. ولكنهم عندما ناقشوا أسسها من الناحية العقلية أصدروا عليـها حكماً قاسياً. ولعل خير مثال لذلك هو صنيع (كانْت) أكبر فلاسفة ذلك القرن. فإنه دعا إلى الإبقاء على العقائد الدينية المسيحية الكبرى باعتبـار أنها لا تنافى الضمير. ولكنه قرر من ناحيـة أخرى أنها ليـس لها أى دليل يمكن أن يدّعى أنه عقلى. ولقـد سوّى (كانْت) فى هذا الحكم بينـها وبين جميع القـضايا الميتافيزيقية سواء أكانت دينية أم إلحادية وثنية. فجـميع ما شاد الفلاسفة من ميتافيزيقيات من عهد سقراط وأفلاطون حتى عهد (كـانْت) إنما كانت حججهم العقليـة عليه محض محاولات لا صحة لشىء منها على النقد الصحيح لأن عالم الميتافيزيقا غير قابل للبرهنة العقليـة بحال. وإذا كان هذا شـأن حجج أساطين الفـلاسفة فى هذا الموضـوع فمن باب أولى حـجج رجال الدين. إن العـقل النظرى ـ فى نظر (كـانْت) ـ لا يسـتطيع أن يخطو خطوة واحدة فيما وراء الطبـيعة ؛ لأنه يسـتمد قضاياه وبراهينه من عـالم الطبيعة الذى لا صلة بينه وبين عالم ما بعد الطبيعة .

وإن هذه الفكرة قد صارت فى القرن الـ(١٩م) ركناً من الأركان الأساسية للفلسفة الوضعية[١]، ومن قبل ذلك كانت قد عُرفت عند بعض الأنسيكلوبيديين.

أما فى مؤلَّف (**كانْت**) المسمَّى (**نقد العقل الخالص**) ؛ فإنها تدوِّى كالصاعقة .. ولقد تصرَّمت قرون عدة والفلسفة الإلهية الميتافيزيقية تجهد فى أن تجد لها قواعد مسلَّمة . ومنذ قرون ـ أيضاً ـ نرى الفلسفة الإلحادية الميتافيزيقية تحاول أن تبرِّر تعاليمها بطريقة لا تخطئ.

ومنذ قرون يحتدم النزاع دون التقدم خطوة واحدة . أليس هذا ـ بكل بساطة ـ لأننا عندما نضع لأنفسنا مسائل ميتافيزيقية فإننا نضع ـ فى الوقت نفسه ـ « معضلات » لا أمل فى قبولها للحلِّ أمام عقلنا الإنسانى المسلَّح بالوسائل التى لديه للعلم والبرهنة ؟

إن ميزة (**كانْت**) هى أنه أقدم على المسألة فى صراحة.. إنه ـ أيضاً ـ قد انتهى فيها إلى رأى يجرح كبرياء الإنسانية.

إننا لا نملك ـ على رأى **كانْت** ـ إلا ثلاث قوى للعقل: الإدراك الحسى والإدراك الكلى والعقل .

---

(١) الفلسفة الوضعية هى التى لا تفهم المسائل الكونية إلا على أساس علمى تجريبى ، أما جميع الدعاوى التى لا يمكن أن تفسر على هذا الأساس فهى جديرة بأن تكون مسائل ميتافيزيقية احتمالية . فمثلاً تقرير نهاية للعالم لأن خالقه هو مستحق الخلود وحده يعتبر من قضايا الفلسفة الميتافيزيقية ، أما تقرير نهاية له لأن الشمس مادة لابد أن يدركها الخمود يوماً ما فتنتهى الحياة ؛ فهو من قبيل الفلسفة الوضعية .

فبالحسِّ نتلقى (**مادة المدركات**). ونعنى ـ بهذا ـ الإحساسات والصور المفككة.

وإذن : فحسُّنا أمامه صور ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك فى الخارج[1] إلا من خلال عدسات الزمان والمكان المشوِّهة للصور. إنه لا يستطيع أن يدرك ـ فى الداخل ـ إلا من خلال قالب الزمان..

وإذن: فمادة الإدراك ، والمُحَسَّات المسلَّمة ، ليست إلاَّ مجموعة ظواهر .. إنها أشباح وظلال ؛ أشبه بأشباح كهف (**أفلاطون**)[2].

أما إدراكنا فهو مَلَكة تركيب .. إنه يجمع مواد المدركات ؛ ويبنى ـ بمساعدتها ـ الصور التى يكوِّنها عن الأشياء وعن نفسه .. ولكن له طبيعته الخاصة ؛ إنه لا يستطيع أن يكوِّن المدركات الكلية التى ينجزها إلا بالنظر

---

(١) أى: خارج الذهن كإدراك المرئيات وغيرها من المحسوسات التى لا تُدرك إلا فى مكان خاص ، أو زمان خاص ، يغيران من صورها ويمسخان من مظاهرها ؛ فكم من جميل فى مكان أو زمان هو بالعكس فى مكان آخر أو زمان آخر.

(٢) كهف أفلاطون ورد ذكره فى كتابه (الجمهورية) وقد أراد أفلاطون أن يضرب به مثلاً للفرق بين المعارف اليقينية وبين سواها من الضلالات والأوهام . وقد مثل لتلك المعارف الموهومة بحال جماعة من الناس يعيشون مرغمين فى كهف وأنظارهم إلى داخله المظلم وظهورهم إلى بابه الوحيد المطل على العالم . ومن باب الكهف تلج إليهم ظلال ناس وكائنات أخرى يمرون بين نيران تشتعل قبالة بابه . ولأن النيران تلقى إليهم بظلال تلك الأحياء على حوائط الكهف المظلمة ، ولما كانوا لم يروا فى حياتهم سوى تلك الظلال فإنهم سيظنونها حقائق ، خصوصاً إذا ولجت إليهم أصواتها مع ظلالها المتحركة ، فلن يستطيعوا أن يتصوروا أن وراءها حقائق أوثق منها ، ولكنهم لو خُلِّى عنهم فتركوا هذا الكهف إلى العالم الخارجى لعلموا الحقائق الأصلية وأدركوا أنهم كانوا جد مخدوعين يحسبون الأوهام حقائق وما هى إلا أشباح خادعة .

إلى مدركات حسية ، بنظرات منحرفة ، بمساعدة مناظير خاصة ، وعلى ضوء بعض المقولات ..

إنه لا يستطيع أن يدرك الأشياء إلا تحت صور الكمية ، والصفة ، والنسبة ، والكيفية.

إنه حينئذ لا يستطيع أن يدرك عالماً إلا مصبوغاً بألوان خاصة ، مرتَّباً على نظام خاص ، خاضعاً لقوانين خاصة . وهذه القوانين هو منطبع بعمومها وضرورتها. وإنها ـ فى الحقيقة ـ لَتعبِّر عن الشروط اللازمة لإمكان التفكير الشعورى . إنها لا يمكن أن تقصر عن شرح القواعد التى يخضع وسيخضع لها ـ دائماً ـ العالم المتصوَّر ، عالم الظواهر ، لأنه عالم مدرك.

أما عقلنا فإنه القوة المطلقة . إنه يطلب ـ بكل قواه ـ المبدأ الأولى[1] الذى يصيِّر كل شىء جلياً، والذى لا شىء يشرحه.

إنه يستولى ـ من أجل ذلك[2] ـ على ما يقدِّمه له الإدراك الكلى من المبادئ العامة الضرورية.

إنه يطمع[3] ـ بمساعدتها ـ أن يدرك المطلق .. لكن يا له من جهد من البداية محكوم عليه بالفشل :

---

(١) أى: المبادئ المسلَّمة عند جميع العقلاء بالبداهة.إن العقل يبذل كل جهده فى محاولة رد الحقائق كلها إلى أشياء جلية واضحة لا يمكن أن يشرحها شىء لأن الشرح لن يكون إلا تحصيل حاصل. وماذا يمكن أن يضاف من الشرح لإيضاح هذا المبدأ الواضح: (الكل أكبر من جزئه). إن الشرح والبرهان لن يكون إيضاحًا بل قد يكون تعقيدًا لبداهتها .

(٢) أى : من أجل طموحه إلى تحقيق مبدأ الجلاء والوضوح والبداهة.

(٣) يطمع فيما لا قبل له به. إن هذا عند (كانْت) يعدُّ طموحاً أكثر مما يجب . إن طبيعة =

إن المبادئ التى تعبِّر عن الشروط التى ـ بدونها ـ أية ظاهرة لن تكون ممكنة ؛ لهى مبادئ صالحة ـ بجلاء ـ لكل الظواهر: حاضرها ، وماضيها ، ومستقبلها .

لكن ما الذى تستطيع أن تحققه لنفسها من قيمة بإزاء الغيبيات التى هى ـ بكل ضبط ـ ليست مما يتصوره الشعور ؟

إن جهد العقل ـ هنا ـ يجب أن يفشل .. وإنه لفاشلٌ فعلاً .. إنه ليتروَّى فى نفسه ، وفى العالم ، وفى الله :

إنه حينما يتروَّى فى نفسه فإنه يستخرج دائماً قياساً كاذباً. إن الأنيَّة[1] تبدو للشعور وحدة بسيطة منسجمة . والعقل يؤكد ـ حينئذٍ ـ بأنها كذلك وحدة بسيطة منسجمة ..

= العقل هى أن يستمد من المدركات . والمدركات مؤلفة من المحسات المقيدة بقيود الزمان والمكان . فبأى مسوغ يحاول ذلك العقل أن يتخطى طبيعته لكى يدرك المطلق الذى هو طبيعة أخرى لا علاقة بينه وبين عالم المدركات ولا عالم المحسات التى تؤلفه وتغذيه؟ إن عالم المطلق ليس إلا غيبيات لا رابطة بينها وبين عالم الظواهر. كيف يمكن ـ إذن ـ لهذا العقل أن يجول فيها كما يريد له فلاسفة الكنيسة ؛ لكى يقدم لهم على مدّعياتهم فى عالم الإلهيات براهين مقنعة ؟.

(١) الأنية هى ما يعبر عن ذاتية كل إنسان كما يشعر هو بها. وفيها خلاف بين الفلاسفة من حيث تحديدها وطبيعتها: يرى بعضهم أن شخصية المرء (أنيته) متغيرة دائمًا وقال بعضهم ببقائها من مبدأ حياته إلى منتهاها. وعلى الخلاف تترتب أمور مهمة كالمسئولية والجزاء والحرية وسواها. ويزعم بعض الحسِّيين أنها مجموعة شعور. ويرى آخرون منهم أنها سلسلة حالات وجدانية. ومنهم من يقول: إنها مظهر من مظاهر التركيب الجسمانى. ويرى غير الحسِّيين أن شعورنا يدل على وحدة ذاتيتنا وبقائها بدليل ذكرى الشخص ما مضى من حياته بما فيه من أحاسيس ومشاعر وجدانية وعقلية. ثم كيف يتصور وجود حالات من الشعور أو سلسلة وجدانات بدون ذات تشعر وتجد كما يدّعى الحسِّيون ؟=

لكن بأى حق يسوغ له الانتقال من الاحتمال إلى الحقيقة الواقعة ؟

أما حين يتروَّى فى العالم فإنه يقع فى المتناقضات .. إنه قد يبرهن فى آن واحد على قضيتين متناقضتين ببراهين متكافئة القوة. إنه يبرهن على أن العالم يجب أن يكون محدوداً بحدود المكان والزمان ، ويبرهن على أنه لا يمكن أن يكون كذلك، ويبرهن على أنه يجب أن يكون مؤلَّفاً من أجزاء بسيطة ، وعلى أنه لا يمكن أن يكون كذلك ، وعلى أنه توجد علَّة فاعلة حرة ، وأنه لا يمكن أن توجد ، وعلى أنه يوجد موجود واجب الوجود وأنه لا يستطاع أن يقطع بوجود أىٍّ من هذا القبيل.

إن «العقل» حينما يجهد فى البرهنة على وجود الله؛ فإنه لا يتمخض إلا عن سفسطات. إن برهان الطبيعيات، وبرهان العلل النهائية يظهر أنهما لا يبرهنان على وجود الله إلا لأنهما ، فى لحظة، يدخلان ـ اختلاساً ـ البرهان التجريدى[1] فى التدليل . فى حين أن البرهان التجريدى إنما هو منطق مزيف . إنه يعتمد على أن الوجود هو الكمال الذى يمد الجوهر بكماله ، مع أن الوجود ليس إلا تصويراً خارجياً هو ـ من حيث نفسه ـ لا يستطيع تكميل أى شىء .

= ولعل أقدم من قال بتغير الذوات: «هيراقليطس» الفيلسوف الإغريقى فيما قبل الميلاد بنحو ستة قرون وكان يمثل لتغير الكائنات بلهب الشمعة الذى لا يبقى على حال واحد لحظتين متعاقبتين. وكان «النظام» من زعماء المعتزلة يرمى بهذا القول إما تقولاً عليه من خصومه وإما زللاً كان منه وإيغالاً فى مطاوح التفلسف .

(١) هو الدليل الذى ألَّفه القديس أنسلم .

ذلك هو ـ على رأى (**كانْت**) ـ نقد قوى المعرفة. إن أية تجربة مباشرة ـ سواء أكانت من خارجنا أو من داخل أنفسنا ـ لا يمكن أن تقدم لنا سوى احتمالات. وإن أى تفكير منطقى لن يستطيع أن يقدم لنا دليلاً على وجود الله ، ولا على خلود الروح ، ولا على حرية الإرادة التى تستمد منها الأخلاق الإلهية المأثورة كل مقرراتها وأدلتها.

وإن (**كانْت**) ليدعونا ـ بدون شك ، من أجل أسباب أدبية ـ إلى الاعتقاد فى الله وإلى ذلك الخلود وتلك الحرية التى لا يمكن البرهنة عليها .. ولكن ذلك ليس إلا عكساً لنظام الفلسفة الدينية.

لقد كان يظن أنه يمكن أن تؤيد بعض الاعتقادات الأخلاقية بمساعدة بعض الأدلة الميتافيزيقية.. إن العكس ـ فى ذلك كله ـ هو ما يجب أن يكون.

إن التروِّى فى شريعة الواجب[1] ـ فقط ، وفى مرماها ـ هو وحده الذى يمكن أن يبرِّر ما تدعونا إليه التعاليم الدينية فى الناحية الميتافيزيقية..

---

(١) يرى (كانْت) أن التماس أدلة عقلية فى عالم (الميتافيزيقا) ليس إلا بحثاً وراء أوهام . فالبرهنة على وجود الله ، وخلود الروح ، والحياة الآخرة ، لا يمكن أن تتم من طريق هذا العقل النظرى. ومع ذلك فإنه يمكن أن تؤيد تلك المعتقدات من طريق المبادئ المسلَّمة التى أساسها الأول هو «قانون الواجب» الذى تشبث (كانْت) بأنه فطرىّ فى النفس الإنسانية وبدهىّ إلى حد أنه لا حاجة به إلى شرح أو بيان : كل نفس إنسانية يوجد فيها هذا القانون الذى يدفع إلى السلوك الأخلاقى الفاضل وما يستلزمه من تضحيات =

إنه ليس فى عالم الميتافيزيقا أن نأخذ أنفسنا بالبحث عن أسس للأخلاق .

وهذه خاتمة ذات مكانة من الحكمة على ما لها من نتائج مهمة :

إذا كان **كانْت** قد أصاب فلن يكون الملاحدة **الأنسيكلوبيديون** على حق فى إعلانهم بطلان الأخلاق الإلهية(١) .

ـ ولكن « الأخلاق الدينية » تكون معتوهة ؛ إذا هى تخيلت أن موضوعاتها ـ التى تعلن بها عن نفسها ـ هى موضوعات قابلة للبرهنة العقلية(٢).

وإذن : فإن نتيجة حتمية تلزم الأنسيكلوبيديين المهدِّين للفلسفة

= دون انتظار مكافأة أو خوف عقوبة. ذلك مبدأ مسلَّم به دون جدال ، (تلك هى الخطوة الأولى). ثم لما كان هذا المبدأ لم يوجد عبثاً ولم يوجد له جزاء فى هذه الحياة كان لابد من حياة أخرى ليؤتى فيها هذا القانون ثماره ويلقى فيها من يتبع هذا القانون ما هو أهل له من ثواب (وتلك هى الخطوة الثانية) ـ ولما كان الوصول إلى مثل تلك الحياة لا يتأتى إلا بخلود الروح كان خلودها أيضاً مبدءاً مسلَّماً به (وتلك هى الخطوة الثالثة). ولما كان هذا الخلود لا يحقق وحده ذلك الثواب كان لابد من إله يفيض الخير على أولئك الذين استحقوه وسعوا إليه بذلك الخلود (وتلك هى الخطوة الرابعة) التى يتضح فيها وجود الله كمبدأ مسلَّم أيضاً لا حاجة به إلى دليل . بل لا يستطيع دليل أن يشرحه لأنه لن يزيده وضوحًا.

(١) أى: إذا كان (كانْت) مصيبًا فى مجموع آرائه ومنها تبرير هذه المعتقدات الدينية التى رأى الإبقاء عليها ولو أنها لا يمكن البرهنة عليها عقلياً ، فإن الفلاسفة الأنسيكلوبيديين يكونون مخطئين فى إعلانهم بطلان الأخلاق الدينية إعلاناً لا تحفُّظ فيه ولا مجاملة .

(٢) يعنى أنه ليس معنى إبقاء (كانْت) على المقررات الدينية أنه يكون فى الإمكان أن تدّعى لنفسها أساسًا من العقل؛ لأن (كانْت) أبطل ذلك وقضى عليه قضاء لا مردَّ له .

الوضعية ، كما تلزم (**كانْت**) نفسه [1]: مستحيل أن توضع موضع الثقة تلك الأدلة الكلاسيكية التى تدَّعى أنها قد برهنت ـ بما لا يقبل النقض ـ على وجود الله ، وعلى خلود الروح ، وعلى حرية الإرادة ، وعلى الطابع الإلهى فى الضمير الأخلاقى.

ومستحيل بالتالى ـ إذا أُرِيدَ إعطاء الأخلاق قاعدة ثابتة ـ أن يعتمد على القاعدة وعلى وجهة النظر الإلهية (**اليهودية ـ المسيحية**) .

السبب الثالث «تقدُّم الأبحاث الاجتماعية» :

إن نمطاً ثالثاً من الأسباب يبدو أنه قد ساهم فى تقوية هذه الحركة. إنه منذ بدء القرن (١٧م) ظهرت آراء جديدة عند بعض الأخلاقيين..

إن تلك الآراء ـ بالتأكيد ـ قد ساهمت فى توجيه العقول وجهة أخرى فى الأخلاق . وليقرأ فى هذا المقام مؤلَّفات (**هوبز**).. لقد كان تأثيره عظيماً فى وسط الفلاسفة .. وإن أثره ليُشَاهَد فى (الكتاب الرابع) من (**أخلاق سبينوزا**).. وإن هذا الأثر ليُرَى ـ أيضاً ـ عند غالبية الأخلاقيين فى القرن (١٨م) .

---

(١) أى: مهما كانت مجاملة (كانْت) فى إبقائه على أسس الأخلاق الدينية ؛ فإنه لا فرق بينه وبين الأنسيكلوبيديين الذين رفضوها دون مجاملة . لأن (كانْت) يتفق معهم فى استحالة بنائها على أسس عقلية ؛ وعليه فإن النتيجة التى تلزم كلا الطرفين واحدة: وهى أنه لا ثقة بعد اليوم فى تلك الأدلة الفلسفية ، التى طالما جهد فلاسفة الكنيسة لكى يلبسوها الطابع العقلى ؛ فإذا هى ـ بعد الامتحان العقلى ـ لا سند لها من العقل .

يرى (**هوبز**) أن هناك مبرراً لاعتبار عصرين مختلفين فى التاريخ الإنسانى :

ـ عصر الحالة الطبيعية السابقة لتكوين الجماعات.

ـ ثم عصر الحالة الاجتماعية حيث الأفراد يتجمعون ويتعاونون.

أما فى الحالة الطبيعية فإن بنى الإنسان كانوا متفرقين منعزلاً بعضهم عن بعض. وكان لكلٍّ منهم ـ بناءً على ذلك ـ حق طبيعى يشمل كل شىء كأن يحتاز الفرد ما يرى أنه نافع له ، وأن يصنع به ما يشاء ، وأن يستخدم أية وسيلة ـ مهما كان نوعها ـ لنيله . وقد كانت المساواة إذ ذاك كاملة بين الأفراد . ومهما عمل إنسان ضد إنسان آخر فليس ظالماً. (**حرب الكل ضد الكل**) و (**سلطة الكل على كل شىء**).

وفى حال كهذه (**يجب أن يستأثر الأقوى**) . وحيازة القوة كانت ـ إذ ذاك ـ هى الوظيفة التى تعلو فوق كل شىء . ونتيجة ذلك : أنه فى هذه الحالة الطبيعية **لم يكن الإنسان (إلا ذئباً على أخيه الإنسان)**[1]. وأنه لذو حق فى أن يكونه ؛ ما دامت تلك الحالة قائمة .

---

(١) يرى أولئك الفلاسفة الوضعيون ، وعلى الأخص أصحاب مذهب التطور ، أن الإنسان لم يكن له فى الأصل شىء من هذه الإنسانية التى نشاهده عليها اليوم . إنه لم يكن إلا وحش غاب كبقية الوحوش الأخرى . لم يكن له من العلم شىء، ولا من الشرائع شىء أصلاً . كان سبعاً بكل ما للسبعية من معنى. وكان ـ قبل السبعية ـ خليقة أحط من السباع دركات . ثم بقانون الترقى والتطور تحت دوافع الحاجة وقسوة البيئة بدأ يكوِّن قطيعاً . ثم بدأ القطيع يتطور بدافع الحاجة إلى التعاون والتساند . ثم انتقل بعد ذلك إلى مرحلة =

ومن هنا نشأت تلك النتيجة : فى عصر الحالة الطبيعية يسود الرعب بين بنى الإنسان. وإن دماءهم لتجمد فى عروقهم منه .. إنه يذهلهم. إنهم - لذلك - يريدون أن يضعوا حداً لتلك الحالة . ومن هنا تنشأ الجهود فى إيجاد خلطاء لكى لا يبقى الفرد منعزلاً ، ضد الجميع ، بدون ظهير ولا مُعين.

وهاك ما رآه القدماء قبل (**هوبز**) ، فى فهم أساس الجماعة : كان (**أرسطو**) يتخيل أن الإنسان مدنىٌ بالطبع .. وهذا حق بالنسبة للنحل والنمل ، وليس هذا حقاً بالنسبة إلى الإنسان.

وآخرون اعتقدوا أن بنى الإنسان قد ترابطوا فيما بينهم بسبب تعاطف

= التشريع البدائى الذى يعطى صاحب القوة كل شىء. ثم انتقل إلى مراحل من التشريع أرقى فأرقى حتى وصل إلى ما نراه عليه اليوم. أما قصة أن آدم عليه السلام وُجد إنساناً سوياً راقياً فليس يعيرها أولئك الفلاسفة أدنى التفات . إنها عندهم قصة (ميتافيزيقية) تنظم فى سلك الأساطير ؛ لأن فلسفتهم التجريبية لا تبالى بما لم يقم عليه دليل من العلم والتجارب .

● ولكنا نسائلهم : أى دليل لكم فى هذه التجارب؟ إن الأمم - حقيقة - فيها الراقون، وفيها المنحطون ، وفيها المتوسطون بين هؤلاء وأولئك . ومع ذلك عندما نرجع إلى تواريخهم البعيدة فى القدم نرى أن أرقى الأمم اليوم كانت أحطها فيما مضى . وأن بعض الأمم المتوسطة أو دون المتوسطة كانت أرقى الأمم فيما مضى . فليست العبرة - إذن - بقانون التطور . بل إن وراء ذلك أسباباً أخرى ساعدت بعض بنى الإنسان على النهوض ، وأسباباً قعدت بالبعض الآخر .. ثم إن دعوى وحشية بنى الإنسان ؛ لأن منهم اليوم من لا يزالون قساة كما كان منهم قديماً أضرى على الشر وأقسى؛ ليست تقوم بالتجربة برهاناً قاطعاً ؛ لأن الإنسانية - قديماً وحديثاً - منها الطيبون الأطهار البرآء، بل الذين يفضُلون الملائكة كالأنبياء والقدّيسين .

طبيعى ، أو بسبب اهتمامهم برغد العيش. حقاً إن هذه الأشياء تلعب دوراً مهماً فى التطور الاجتماعى . إنها تقوِّى المجتمع الذى قد كان. إنها ليست هى التى خلقته . أية تجربة تلك التى دعت بنى الإنسان قبل تجمُّعهم ، إلى أن يكون لهم رغبات وفوائد يجنونها من تجمُّعهم ! . إنه ـ فقط ـ (**الرعب المتبادل بين بنى الإنسان بعضهم من بعض**) دفعهم إلى الخروج من العزلة، وإلى تكوين الجماعات.

ومن المؤكد أن الحياة الاجتماعية لها أساسها الطبيعى ؛ لأن الطبيعة هى ـ فى الحقيقة ـ التى تحدونا إلى اختيار أقل ما يمكن من الألم. إنها ـ فى الحقيقة ـ هى التى تحملنا على أن نتمنى الحصول على زوجة وعلى أبناء. وهى التى تربطنا برغد العيش كثمرة للحياة الجماعية.

إن الكلمة الأخيرة ـ فى ذلك ـ ليست دائماً متفرقة ، إذا كان بنو الإنسان قد كوَّنوا جماعات فما ذاك إلا بسبب حب الذات، (**وليس بسبب تعاطف قوىّ يحملونه لأمثالهم**). إن الطوائف الاجتماعية إنما نشأت عن حاجة كل فرد إلى الشعور بطمأنينته.

ومهما يكن الأمر فى هذه المسألة الجدلية ؛ فإن حقيقتين تظهران :

يبدو قبل كل شىء أن تجمُّع بنى الإنسان لا يمكن إلا بشروط مخصوصة.. ولو أن فرداً استطاع أن يحقق حريته الأولى كاملةً فإنه ما كان يستطيع متابعة حياة الاجتماع بالآخرين. وإنه لن يستطيع ذلك إلا بتحديد مطامعه وحقوقه التى يعتقد أنها تشمل كل شىء.

ولكى تتلو الحالة الاجتماعية الحالة الطبيعية فلابد من توافر شرط : أن يوضع عقد اجتماعى بين الأفراد (**يتنازل فيه كل منهم عن شىء من حقه الخاص**) ، (**ويقدِّم للآخرين بعض المزايا**).

كيف يمكن ـ إذن ـ أن ينظم مثل هذا العقد ؟.. لنلجأ إلى العقل فهو يهدينا. إنه يملى علينا ما يسميه هوبز (**القانون الطبيعى**).ونعنى به: ما يجب عمله، وما يجب الامتناع عنه، لكى يمكن الإبقاء على حياة الجماعة وعلى أعضائها أطول مدة ممكنة . ويرى (**هوبز**) أن ينظم مواد ذلك القانون على هذه الصورة : التزام باحترام هذا العقد والمحافظة على حدوده . التزام بالإخلاص لشركائه الذين تعاقد معهم . التزام بأن يكون المرء سهلاً وعلى استعداد لخدمة مواطنيه . التزام بإظهار الرحمة ، وأن لا تكون عقوبة إلا بقصد ضمان المستقبل ، وأن يكفَّ عن الإساءة وعن كل صلف جارح للشعور ، وأن يمنح الآخرين من المزايا ما لا يضنُّ هو به على نفسه ، وأن يُظهر الإنصاف ، وأن يختار محكَّمين فى أحوال المجادلة والمخاصمة . هذه الالتزامات كلها من يُرِدْها فسيعرف مصدرها . إنها جميعاً مقتبسة من وصايا الإنجيل: (**عامِلِ الناس بما تحب أن يعاملوك به**)، (**على المرء أن يضع نفسه موضع من يريد أن يعامله بأى نوع من أنواع المعاملة**)، (**لا يعملنَّ أحد فى الآخرين ما يبدو ـ له هو نفسه ـ كريه المذاق**).

إن (**القانون الطبيعى**) ـ مأخوذاً على هذه الصورة ـ هو على رأى (**هوبز**) قانون الأخلاق.

وقد دعاه ذلك إلى إبداء هذه الملحوظات: منذ اللحظة التى يعدل فيها بنو الإنسان عن حقهم الطبيعى الأول الممتد إلى كل شىء، ويضعون عقداً اجتماعياً مبنياً على العقل، ويشرعون فى السير على مبادئه، فإنهم يحققون لحياتهم الخاصة صفات لا نهاية لسموِّها على حياتهم الطبيعية الأولى. قبل التجمع لم يكن الإنسان لأخيه أكثر من حيوان مفترس .

والفضل لحياة التجمع أن أصبح كلٌّ للآخرين ملاكاً حارساً . وإن قبول الفرد أن يطيع هذا (**القانون الطبيعى**)الذى هو فى نفس الوقت (**قانون الأخلاق**) لا فرق بين أحدهما والآخر ، ما هو إلا لأن هذا القانون هو الأساس الذى يجعل الاجتماع أمراً ممكناً . وليس هو ـ من أجل كل فرد ـ أمراً نافعاً فقط، بل إنه ـ أكثر من ذلك ـ ضرورى لكل حركاته وسكناته.

وهكذا ـ تحت تأثير هذا النظام ـ تتولَّد فى العالم الفكرة التى ستشق طريقها:

هل الأخلاق ـ بعد البحث ـ هى ما أرادت النصوص الدينية أن نفهمه منها ؟.. لقد فُهمت على أنها ذات أصل إلهى. أليست هى ـ بكل بساطة ـ ذات أصل اجتماعى ؟

ولقد اعتُقد ـ أيضاً ـ أنها مؤسَّسة على الخوف من الله . أليست قابلة للاعتبار والتقدير بما فيها من المنفعة التى تقدمها للجماعة التى بدونها ينقرض النوع الإنسانى ؟

ومهما يكن من شيء فإنه عندما يشرع بعض الفلاسفة فى بث أفكار من هذا القبيل ، فإن الحلول القديمة تتأرجح والمسائل تتطور ولو لم يصلوا إلى النتائج التى تتضمنها هذه الأفكار كما ترى فى صنيع (**هويز**) هذا .

السبب الرابع «سلوك رجال الكنيسة» :

عرفنا فيما مضى ثلاثة أسباب : قلة ثقة فى ناحية التعاليم الدينية المأثورة ، وقلة ثقة فى الناحية الفلسفية الميتافيزيقية ذات الطابع الدينى ، وتقرير للطابع الاجتماعى للأخلاق . ذاك هو ما عرَّض للخطر ـ فى نظر المفكرين فى القرنين (١٧) ، (١٨م) ـ قواعد الأخلاق الدينية (**اليهودية ـ المسيحية**).

بيد أن المفكرين كانوا ـ إذ ذاك ـ قليلين .. كما أنهم لا يزالون كذلك فى عصرنا هذا . إن تفكير الفلاسفة لا يتحرك إلا فى دائرة ضيِّقة . إنهم لا يؤثرون فى الجمهور إلا بعد أن يصير من الأهلية بحيث يفهم فكرتهم ومكانتها . وإن النقد العقلى الدقيق لا يُعِدُّ الجمهور للتأثر بالفكر إلا على ندرة.

ـ أما الذى يستهوى الجمهور ويهزُّه فهو الشناعات..

الشناعات ! .. إن الأخلاق الدينية كانت عرضة لها فى أغلب الأحيان خلال القرن (١٧م) . إنها أضرَّت بها بأكثر مما نالها من جميع أفكار الفلاسفة.

وليس يغيب عن الذاكرة أهم صورة من ذلك النزاع : تلك المنازعة المؤثرة الدائمة بين (**الجزويت**) و (**الجنسينست**) .. إن الجدال هنا لم يبق مجرد برهنة علمية بين باحثين دينيين وأخلاقيين متعمِّقين . إنه نزل إلى الصالونات أولاً. ثم نزل ـ مع كتب **بسكال** ـ وعمليات «**البوليس**» الخشن ـ إلى الشارع.

إن كتاب بسكال «PROVINCIALES» لَكتابٌ مرعب .. إنه ليحوى آراء واضحة منطقية مملوءة بأصفى عقلية فرنسية ساخرة مستهزئة.

وعلى أثره ساد ـ فى القصر، وفى المدينة ـ تلك الحالة : حول أصعب المسائل الإلهية الأخلاقية.. وعمَّ الاضطراب.

ـ وإنه لطريف أن أولئك الذين يُظَنُّ بهم «الاتحاد» لم يتفقوا إلا على الألفاظ التى يتكلمون بها. أما على الحقائق فآراؤهم متناقضة.

فعند (**الجنسينست**) أن « **آدمَ عادلٌ ولكن أخطأه التوفيق** » .. وفى هذا ما يتضمن العقيدة القائلة بالقضاء والقدر (**الجَبْر**).

أما عند (**الجزويت**) فإن الإنسان له من التوفيق دائماً قَدْرٌ كاف ليعبد ويتضرع. والله لا يمنع ـ قَطُّ ـ توفيقه الناجع عمن يضرع إليه. وفى هذا ما يذهب إلى أن للعبد قدرة وحرية . أما أتباع (**توماس الأكوينى**) فإنهم يقولون ما يقوله (**الجزويت**) ولكنهم يفهمونه على وجهة نظر(**الجنسينست**) .. أغباءٌ هذا أم نفاق ؟.. تلك نتيجة جارحة للشعور تماماً.

ـ لكن ما الرأى فى تفسيرات الجزويت للأخلاق المسيحية ؟..

يجب أن تُدرس هذه الأخلاق عند آباء الكنيسة . إنها مذهب صارم من الاحترام والحب . جميع الواجبات فيها واجبات نحو الله . ولكن لا سبيل إلى إرضاء الله إلا بممارسة مكينة لأعمال التقوى والعدالة والتضحية .. تلك أخلاق تبدو بعيدة عن الاحتيال والنفاق ، كل شىء فيها مضبوط ، وصارم ، وسامٍ ، ومشروع .

ـ وإلامَ صار هذا المذهب عند فقهاء الأخلاق (**جماعة المسيح**) ؟.. لقد شرح (**بسكال**) للجمهور الذاهل المبهوت ..

وهذا هو شرحه لقاعدة (**الآراء الأصوب**) :

أنت تتردد ـ مثلاً ـ أمام مشكلة أخلاقية فتلجأ إلى ضميرك؛ تستنصحه بعناية . إنه يجيبك بوضوح عما عرضته عليه. وأنت ـ إذن ـ تعتقد أنك قد أصبحت عارفاً بما يجب عليك.

لكن لنفرض أن ما قد عرفته يتكلَّف جهداً لتنفيذه، إنك لم تكن على استعداد لذلك. إنك لن تكون ملزماً حرفياً بعمله. هناك علماء الأخلاق الذين تمرَّسوا بالواجبات . ومن بينهم يتميز (**علماء وقورون**) فانظرْ ـ إذن ـ بماذا أفتوا فى هذا الموضوع الذى يشغلك . فإذا ما أصدر أحد هؤلاء (**العلماء الوقورين**) ـ كائناً من كان ـ رأيه فى هذا الموضوع بما يخالف وحى ضميرك ؛ فالسبب معروف . ولك الحق فى أن تتبع رأيه حتى ولو خالف كل ما أفتاك به عقلك وقلبك.

تَتَبَّعْ ثَبْتَ (**العلماء الوقورين**). وهذا الثبت مخيف إلى حد كبير : مثلاً أنا أقول : أيها الأب عندما جئتم تَوارَى من الوجود (**سانت أوغسطين**) و(**سانت كريسوستوم**) و (**سانت أمبرواز**) و (**سانت جيروم**) وسواهم ممن كانوا يُرجَون للتعريف بما هو من الأخلاق. ولكن ـ على الأقل ـ يجدر بى أن أعرف أولئك الذين جاءوا من بعدهم..

ـ **فمن يا ترى أولئك الخبراء الجدد ؟..**

ـ إنهم قوم مهرة مشاهير. هكذا يجيبنى:

خُذْ مثلاً (**فيالوبس**) ، (**كونينك**)، (**لاماس**)، (**أشوكيه**)، (**ديالكوزيه**)، (**ديلاكريز**) ، (**فيراكريز**) ، (**إيجولان**) ، (**تامبورات**) ، (**فيرناندين**) ، (**مارتينيز**) ، (**سواريز**) ، (**هرنيكيز**) ، (**فاسكيز**) ، (**لوبيز**) ، (**جوميز**)، (**سانشيز**) ، (**دى فيشيز**) ، (**دى جراسيس**) ، (**دى جراساليس**) ، (**دى بيتجيانس**) ، (**دى جرافاييس**) ، (**سيكلانتى**) ، (**بيزوزيرى**) ، (**باركولادى بوباديلا**) ، (**سيمانشا**) ، (**بيرى دى لارا**) ، (**ألدنيا**) ، (**لوركا**) ، (**دى سكاريسيا**) ، (**كارنتا**) ، (**سكوفرا**) ، (**بيدريتزا**) ، (**كايريتزا**) ، (**بيسى**) ، (**دياس**) ، (**دى كلافاسيو**) ، (**فيلامى**) ، (**آدام آماند**) ، (**إيربارن**) ، (**بينسفيلد**) ، (**فولفانجى أفوربير**) ، (**فوثرى**) ، (**ستريفورف**) .

ـ آه أيها الأب. (**هكذا أجيبه مرعوباً**) .. أكل هؤلاء الناس كانوا مسيحيين حقاً ؟!.

ـ وهكذا يشرح بسكال طريقة (التقييد الذهنى) :

تُسأل ـ مثلاً ـ : هل كذبت ؟..

وأنت فى الحقيقة قد وقع منك الكذب. ولا تريد أن تعترف بصدوره منك . هنا تكون على حق فى أن تجيب بأنه لم يصدر منك كذب ؛ لأنه يكفى ـ لكى تكون فى وفاق مع ضميرك ـ أن تتحفظ بعض التحفظ : مثلاً قبل أن تجهر بقولك (**لم أكذب**) تقول فى سرِّك كلمة (**أتمنى لو أنّى**) أو (**ليتنى**). أو بطريقة أحسن : بعد أن تجهر بقولك (**لم أكذب**) تلحقها ـ فى سرِّك ـ بكلمة (**اليوم**).

ذلك هو « التمرين المرذول » الذى يجعل من الشناعات ـ بجميع ضروبها ـ أمراً مشروعاً.

وهنا ينفجر (**بسكال**) فيقول : « وسيقول لك الأب : ها أنت ذا ترى أنك إنما قلت الحقيقة. وأنا أقول له: اعترفْ بذلك أيها الأب. ولكن ـ فقط ـ يظهر لى أن ذلك معناه : حقيقة فى السر ، وكذب فى العلانية ».

ـ وهكذا يشرح (بسكال) مسألة (توجيه المقاصد) :

إذا كنت تقتل لتسرق فلن تجد لك عذراً يُقبل. أما إذا كنت تقتل دفاعاً عن نفسك فما عليك من ملامة ولا تأثيم.

إنها ـ إذن ـ هى «النيَّة» التى تصيِّر عملك بريئاً،أو غير برىء .. ولا شىء يلزم لذلك أكثر من هذه النيَّة . فإذا ما أردت عملاً يجرُّ عليك اللوم

فإن فى استطاعتك أن تعمله بلا جريرة تلحق بك. ابحثْ ـ فقط ـ عن خير طريق لتوجيه مقصدك فى هذا الأمر . اتخذْ لنفسك القصد الذى به يجب أن تصير خطيئتك التى ترتكبها شيئاً لا ضير فيه . وإن فى هذا ـ غالباً ـ لَمنفعةٌ جسيمة :

ـ مثلاً : أنت ترى الأخلاق تحرِّم المبارزة ، وتبيح الدفاع عن النفس. إذن: فخذْ سيفك ، واذهبْ فى موعد المبارزة الذى يحدده خصمك. ومَكِّنْ يدك من قبضته ، وانتظرْ أول بادرة من هجومه عليك فيكون لك الحق فى قتله بنية الدفاع . وهكذا تقتل هذا العدو اللدود.

ـ وبنفس الطريقة يستطيع مستحق فى «وَقْف» أن يتمنى موت المتسلِّط عليه ، وكذلك أن يتمنى الابن موت أبيه ، لكى يظفر كل منهما بما يريد . ولكل منهما أن يُسَرَّ بوقوع هذا الموت، لأنه إنما كان يقصد بتمنى الموت فائدة ينتظرها ولم يكن لعداء شخصى .

ـ ويشرح (بسكال) ـ أيضاً ـ العمليات الصغيرة التى تقوم مقام الدِّين الصحيح :

إنه ليكفى أن يحمل المتديِّن بعضَ أيقونات ، وأن يرتِّل بعض أدعية ، وأن يعدَّ بمسبحته بضع عشرات ، وأن يركع بضع ركعات وأن يعمل طبقاً لطائفة من الطقوس الدينية الصبيانية الذليلة . وهكذا ينال رضا العذراء ، ورضا القدِّيسين ، ورضا المسيح نفسه .

أما العدالة والإيثار ومحبة الله فلا تأتى إلا أخيراً.

وإن (**بسكال**) ليعجبه هذا المذهب ، مذهب الغفران الرخيص الذى يوافق أهواء الناس ، والذى يسمح ـ لقاء بعض شعائر دينية ـ بكل ضروب الخطيئة وغواياتها. ذلك الغفران الذى يلقى فى روع الناس أن من يقوم بهذه العمليات (**دون أن يغيِّر من سلوكه الشائن**) سوف يردُّه الله إلى الإيمان الصحيح بعد موته، أو أن الله سيبعثه خَلْقاً آخر .. **(وفى ذلك ما يبدو لى مُورِّطاً لأصحاب الخطايا فى فوضى خطاياهم، بسبب هذه الفكرة الباطلة التى تقوم على أسس تلك الثقة الجريئة ، أكثر مما يبدو لى آخذاً بيدهم إلى التوبة الحقَّة التى تأتى كثمرة للتوفيق الإلهى وحده).**

كل ذلك قد تفجَّر ـ كما تنفجر القنبلة ـ وسط هذا الشعب المؤمن.

إن أولئك الذين هم « أصحاب الحظوة » فى القصر ، ليسوا هم (**الجنسينست**) الشرفاء إلى حد الصرامة .

إنهم (**الجزويت**) أنفسهم الذين ليَّنوا الأخلاق الدينية حتى أحنوها أمام جميع مقتضيات الحياة الإنسانية.

فالاضطهاد نصيب أولئك (**الجنسينست**) المتشددين.

أما (**الجزويت**) ذوو الرخاوة فهم أصحاب المكانات السامية الكهنوتية، وأصحاب الحق المُنيف فى أن يعدُّوا من بين رُتبهم رتبة تلقَّى الاعتراف من الملك.

وما ثَمَّ شك فى أن **الجزويت** قد عارضوا **(الرسائل الصغيرة) لبسكال** بردود فوق ردود . وإنهم ليحتجون ضد التأويلات التى أُعطيت عن فكرهم وتعاليمهم . ولكن ذلك لم يُجدهم جدوى .

وكانت النتيجة أخطر مما توقَّعه (**بسكال**) . فقد أراد الله أن يفرِّق بين الأخلاق المسيحية وشروحها عند **الجزويت**. فكان من سوء الحظ أن تستعر نار الجدل متجاوزة كل حد.. إن عجلة الأخلاق الدينية المأثورة قد انزلقت إلى حمأة .. إنها قد خرجت منها ؛ ولكنها بقيت ـ بعد ذلك ـ جدَّ ملطَّخة .

لو أن تلك الشنعة كانت الوحيدة !.. إذ إنه قبل أن يتوارى شبحها بدأ فى الأفق دويٌّ أخرى. وإن تكن هذه أخفَّ ـ بدون شك ـ فإنها ليست أقل نتائج .

إن الأخلاق المسيحية تدعو المؤمن ـ كما يبدو لنا ـ إلى محبة الله .

وكيف يجب ـ إذن ـ أن نحب الله ؟..

ـ إن هذا يستدعى تأملات وتأويلات .

وأيضاً ماذا نرى بصدد ذلك ؟..

نرى ـ والحق يقال ـ سيدة نصف مجنونة ـ أعنى (**مدام جيون**) ـ تتخذ تعاليم ، وتعطى مُثُلاً فيها من جذبة الحب بمقدار ما فيها من بلبلة الخاطر . إن حب الله الذى تطريه وتمجِّده إنما هو اتحاد الروح بالله .. ليس ـ فقط ـ

بتجرُّد عـن الغايات ، ولكنه فوق ذلك إلى حد الوَلَه . والمسيحى لا يكون مسيحياً حقاً إلا بأن يَفْنَى فى الله ويَـدَعَ الله يتحرك فيه. وإن الطريقة الحقَّة ـ لمناجاة الله ـ تتلخَّص فى أن يغـرق المؤمن فى تأملات فى الله ، دون قول أو عمل أو طلب يُرجَى منه ، منتـظراً تجلِّياته . وهذه الحال إذا تحقـقت تماماً فإنها تملأ الروح من الله. أما الأعمال ـ حينئذ ـ فلا قيمة لها. إن نقاء الحب يجعل كل شىء نقياً . وعلى هذا عندما تصل الروح إلى ذلك المقام تصبح (**خاضعة لجميع مظاهر العناية الربانية**).إنها لن تحب سوى المحن، والتُّهم، والرضا بالمخـازى .. بل إنها لتـقبل ، فـوق ذلك ـ من أجل حب الله ـ أن يُحكم عليها بالهلاك الأبدىّ من الله وبإقصائها عن حضرته أبد الدهر.

ومع هذا فقد كانت **مدام جيون** تنقل إلى من يتصل بها هذه المُعْديات. لقد كانت تبشِّر . وكانت تنشر حولها بمجرد ظهـورهـا ما كانت تفيض به من الخيـرات . ولقد كان لها مـريدون متحمسـون وكنيسة صغـيرة . وكل ذلك استرعى انتباه (**بوسيه**) واستدعى تدخُّله فى الأمر.

وما كان ثَمَّةَ من خطر لو استقرت الأمور عند هذا الحد .

ولكن انظرْ كـيف خـاض حَبْـرٌ من الأحبـار مـثل(**فينلون**) فـى هـذا الموضوع .. انـظرْ كيف كان يُـظهر التشـبث بآراء (**بوسيه**) ويُظهر الاتفاق معه ، ومع ذلك أخرج كتابه (**شرح حِكَم القدِّيسين**). وهو يميِّز فى كتابه ـ على الترتيب ـ درجات كثيرة من الحب الإلهى. إننا نحب الله على خمس صور مختلفة.. ولكنها ليست ـ جميعها ـ سواسية :

بعض الناس لا يحبُّون الله ؛ إلا لأنه يرسل المطر لزروعهم ويبارك فى حصادهم . ذلك ليس إلا حباً رِقِّيّاً ليس من الأخلاق ، ولا من الدِّين فى شىء.

وآخرون يحبُّون الله خوفاً من غضبه ، وطمعاً فى نعيم جناته ، وذاك ليس إلا حباً لشهوة صغيرة ولا شىء فيه من الأخلاق بمعناها الحق .. إنه حب خاضع للحساب .

وسواهم يحبُّون الله لذاته ، ويضمُّون - إلى ذلك - الطمع فى ثوابه وخوف عقابه إن لم يحبُّوه . ولنسمِّ هذا الحب حب الرجاء ، وفيه يستمر الحساب الأنانى متغلباً.

وبعض الناس يحبُّون الله بطريقة هى - تقريباً - مجرَّدة عن الغاية. بيد أنهم لا يتجردون - تماماً - من بعض دوران حول شخصيتهم ، ومن بعض التفات إلى فائدة ذلك الحب.. وأولئك - أيضاً - ليسوا كاملين فى خُلُقيتهم ، ولا فى تديُّنهم ، كل الكمال .

إن طريقة واحدة من الحب هى التى تهب الأعمال ملأها من الخُلُقية ، تلك هى محبة الله المجرَّدة . والله - حينئذ - يكون محبوباً لذاته ، دون شريك، أما اعتبار المنافع والمضارِّ التى يمنحنا إياها أو التى يقدر على أن يمنحنا إياها فلا تلعب هنا أىَّ دور .. إنه حينئذ - وحينئذ فقط - لا يوجد سوى سيطرة الحب المجرَّد الذى له - وحده - المجد الأعلى ، وهو - وحده - الخُلُقية الكاملة ، والتديُّن الكامل . وماذا نقول بعد ؟..

إن « **مدام جيون** » ليست هى وحدها التى تعرضت لغضب السلطة الكنسية ، ومضايقات السلطة المدنية .

إن (**فينلون**) أُصيب ـ أيضاً ـ بهذه الضربة ، وصودر كتابه ، وقضى حياته فى نصف منفى مذهَّب ، هو أسقفية (**كامبريه**) .

إن تقريظ الحب المجرَّد لم يكن هو كل ما اقترف . فقد اجترأ على أن أخرج كتاباً لتربية (**دوق بورغونى**) ملك فرنسا المنتظر أسماه (**تليماك**) ظاهره ملطَّف وفى باطنه ما فيه . وكان مع ذلك ـ عند من يحسن القراءة ـ كتاباً يُبطن غير ما يُظهر..

إنه لم يكن ـ فقط ـ محاكاة دقيقة **لهوميروس** ، بل لقد كان ـ فوق ذلك ـ نقداً انتقامياً لسيرة **الملك لويس الرابع عشر** وضع لتربية حفيده هذا. وفى هذا ـ أيضاً ـ تتجمع حمأة ذات أوحال ملطِّخة.

وها هى ذى « الشناعة الأخيرة » التى ـ حولها ـ لم يكفّ (**فولتير**) ومعاصروه حملاتهم . ذاك هو التناقض بين السيرة التى كان عليها كبار رجال الكنيسة وبين الأخلاق التى كانوا يعلِّمونها ويوصون بتعليمها فى الكنائس .

إن التناقض بين تلك « القواعد » التى تُقعِّد بالشفاه ، وبين تطبيقاتها العملية ، لم تفلته تلك العقلية الشيطانية للشعب الفرنسى منذ زمن بعيد . وإن المؤلَّفات الكوميدية (**الهزلية**) للقرون الوسطى وللقرن «١٦م» مليئة بذلك التناقض .

ولكن الأمور لم تكن قد بلغت من « التناقض » ما بلغته فى القرن (١٨م). كانت الفضائل المسيحية: كالفقر ، والتواضع، والقناعة، والصوم، والورع، والسذاجة، والرحمة، وإرادة السلام بالعدل ، ومحبة الله الخالصة ... كل ذلك كان خيراً للمؤمنين ، وللقسِّيسين ، وللقدِّيسين ، وللخُطب والمواعظ .

أما أساقفة البلاط، والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شىء آخر : البذخ ، والأحاديث المتأنقة مع النساء، والشهرة فى مجالس الخاصة، والعجلات ، والخدم ، والأرباح الجسيمة ، والموارد ، والمناصب ... وإنه ما كان ليصدر عن النبل ولا عن الصلاح والتقوى أن تُتقلَّد رياسة الكنيسة ورتبتها العليا فى سن الثلاثين .

ولم يكن ثَمَّةَ وسيلة أنجح من التخويف بالله من ناحية ، وبالشيطان من ناحية أخرى لإبقاء الشعب فى خضوعه وسكونه ، وجرِّه إلى أقدام السلطة فى طاعة واحترام .

لكن ما الذى يستشعره من قدرة الله ، ومن خوف الشيطان ، أولئك الأحبار الموكَّلون بحكم الشعب ؟..

إنها لدعاية عجيبة[1] تلك «القدوة» التى يعطونها لنشر الأخلاق التى يطرونها فى الكنائس، ولنشر الحجج التى يقيمونها لترويج تلك الأخلاق.

(١) وجه العجب فيها أنها كانت تقدَّم للناس ليعملوا بها ، دون أن يعمل بها أولئك الذين يشرِّعونها.

وإنه لأكيدٌ أن كل مبالغة هنا ستكون من الخطورة[1] بمكان: إن هاتيك الشناعات ليست هى التى نبَّهت أفكار الفلاسفة وصرفت طائفة منهم عن الأخلاق (**اليهودية ـ المسيحية**)[2]، لكن هل كان يتمُّ لحججهم ما تمَّ لها من تأثير لو لم تكن تلك العواطف التى كانت تحرك الجمهور تحت مشاعر تلك الشناعات ؟ .. إن عاصفة لا تستطيع أن تَهْوِى بدوحة مئوية السنين إذا ما كانت جذورها سالمة . أما إذا كانت جذورها قد بليت بفعل الحشرات والتعفن فإنها تخرُّ بكل ما عليها[3].

ذلك هو تاريخ « الصرح الفلسفى » للأخلاق المسيحية..

لكن كيف استطاعت تلك الأخلاق أن تتمالك أمام عقل يتكالب عليها فى ازدياد مستمر متواصل ؟.. على حين كانت قداستها لا تستند

---

(١) يعنى : من الخطر أن يبالغ فى الأمر على غير حقيقته لأن ذلك عدوان على الحقيقة التى أراد المؤلف بكتابه أن يخدمها.

(٢) أى : من المبالغة أن يدَّعى أن تلك الشناعات هى التى صرفت الفلاسفة عن احترامهم للتعاليم المسيحية وأغرتهم بأن يحملوا عليها حملاتهم الشعواء ؛ لأنهم فى الحقيقة حتى بصرف النظر عن تلك الشناعات كانوا بدافع من عقولهم لا يحترمون تلك التعاليم . وغاية ما فى الأمر أن تلك الشناعات ساعدت حملات الفلاسفة وزادتها قوة فى نظر الجمهور المثقف وجعلت لها من التأثير ما لم يكن ليتم لولا وجود تلك الشناعات.

(٣) يشبِّه المؤلف التعاليم (اليهودية ـ المسيحية) بتلك الدوحة ، ثم يعجب كيف استطاعت تلك الدوحة الصمود لتلك العواصف مع أن سندها كان واهياً من ناحية العقل!.. إن ثباتها ـ طبعاً ـ يرجع إلى أن لها مبررات طال عليها الزمان ، والناس يعتقدون أن لها حججاً ومبررات ؛ وفى هذا ما أعانها على البقاء لأن العقائد المأثورة لها سلطانها.

إلى قـوة البراهين بقـدر مـا تستند إلى سلـطان المقررات الأخـلاقيـة ذات التاريخ البعـيد التى يخيَّل للعقل ـ بسبب تطاول الزمان علـيها ـ أن لها من تلك البراهين مـا يبرِّرها .. ذلك « السلطان » الذى كـان يتأرجح فى هواء «العاصفة» التى أثارها تفسير« **العهد القديم**»، وشناعات «**الكازويستيك**».

●●●

obeikandl.com